

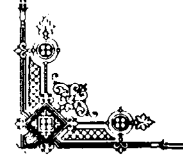
جمعية احياء التراث الاسلامي

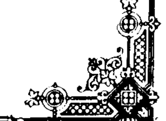


الكتاب الثقافي ٣

لمحات من حياة شيخ الاسلام
ابن تيمية

تأليف
عبد الرحمن عبد الخالق







النـاشر

جمعية احياء التراث الاسلامي

ص.ب ٣٨١٣٠ الضاحية

ت : ٨٤١١٣١ ـ ٨٤٨٦٥٣ ـ ٨٤٨٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل شهد الله ان لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد القائل : العلماء ورثة الأنبياء ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه ودعا بدعوته من أئمة الدين وعلماء الاسلام وعلى كل قائم لله بدعوة صحيحة داخل في قوله تعالى ﴿ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

وبعد

الدوافع الى تأليف هذا الكتاب :

فان شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه من النفر القليل الذين كانت حياتهم كلها لله ، والذين دعوا الى الله على بصيرة ، شاهداً لله سبحانه وتعالى أنه لا اله الا هو ، قائما بالقسط ، فقد كتب وألف عشرات المجلدات بل مئات المجلدات في هذين المعنيين : اثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى وتحذير الأمة من الشرك الذي تفشى فيها بعد صدر الاسلام ، ثم اثبات عدل الله في تشريعاته وقضائه وقدره ، ولقد تعرض شيخ الاسلام في سبيل ذلك الى تفنيد مزاعم قوى الشر كلها التي انتشرت وسادت المسلمين في عصره في القرن السابع الهجري وأوائل الثامن . فتصدى بالرد على الفلاسفة وأذنابهم والرافضة وأكاذيبهم، والباطنية وخبثهم ونفاقهم ، والصوفية وعقائدهم الفاسدة وترهاتهم ، وللمتكلمين وخلفائهم وتأويلاتهم الباطلة ، وللمقلدين وعبادتهم لشيوخهم وتعصبهم لآرائهم المخالفة للكتاب والسنة ، والنصارى وضلالهم ، واليهود وخبثهم وافسادهم ، والف في كل ذلك وكتب ودرس وسافر وارتحل وناقش ولم يكتف بهذا ايضا بل جرد سيفه لقتال التتار فجمع الجموع لملاقاتهم ، ووحد صفوف المسلمين لحربهم ، وخاض المعارك ونصره الله عليهم ..

وهو في كل هذا عازف عن الدنيا ، لم يتزوج ولم يكتنز مالاً أو يبني داراً ويتخذ عقاراً إلا ما اراده من دار الآخرة .

وعالم هذا شأنه لا شك أن يكثر أعداءه وحساده .. فقد عادى الدنيا كلها في الله وخاصم كل منحرف في ذات الله ، ولم يداهن أميراً ولا وزيراً في الحق ، بل صدع به حيث كان ، ولذلك كثرت ابتلاءاته ومحنه فلا يخلص من محنة الا ودخل في أخرى ، ولا ينتهي من سجن حتى يزج به في سجن آخر ، ولا ينصر في محاكمة حتى تعقد له محاكمة جديدة .. وكل ذلك وهو صابر محتسب ، بل فرح مستبشر أن أكرمه الله بكل هذه الكرامات وهيأ له كل هذه الأسباب لينشر علمه وتعظم محبة أهل الخير له ، فكان قدوة للعالمين من أهل الخير في زمانه ، ونموذجاً للعلماء العاملين في وقته ، بل كان من تلاميذه جهابذة الأمة

في كل فرع من فروع المعرفة الدينية فمن تلاميذه ابن كثير امام المؤرخين والمفسرين ، والذهبي علم المحققين والحافظ المزي ، امام من أئمة النقل والرجال والحديث وابن عبد الهادي علم التحقيق ، وابن القيم امام الامة وفارسها ، وروحاني الاسلام ... وخلق كثيرون .. ثم اصبحت كتبه من بعده هي الهادي والمرشد لعقيدة أهل السنة والجماعة ، بعد أن لبس الملبسون من أهل الكلام والزندقة على الناس ، ونشروا عقائدهم الباطلة في الامة فقام هذا المجدد الفرداني والعالم الرباني فكشف بنور القرآن والسنة اضاليل أهل الكلام والبدعة والزندقة والردة .

● أعود فأقول عالم هذا شأنه كثر حساده وأعداؤه في حياته وبعد مماته ينقبون كتبه ويفتشون لعلهم يظفرون له بخطيئة او بزلة وليس هو بمعصوم فيضخمون ما ظنوه خطأ . فيجعلون خطأه كفرا ، وردة ، ثم يفترون عليه ويكذبون ، كل ذلك يسعون جاهدين أن ينفروا الأمة عن طريقه ويصرفوا العالم عن مطالعة كتبه ، ولكن هذا منهم كان ينقلب في كل مرة عليهم حيث يقف الناس على كذب شانئيه ومبغضيه فينقلب السحر عليهم ، وتبتلع آية الله ما أفكه الظالمون ، وما افتراه المفترون .

وكان من جملة ما افتراه بعض هؤلاء من زعم أمام مجموعة من الطالبات أن ابن تيمية وابن القيم قد خالفا اجماع المسلمين لقولهما بفناء النار .. وزعم أن هذا اجماع قطعي .

وقال عن شيخ الاسلام ابن تيمية انه سجن من أجل ذلك ولو لم يمت في السجن لنفذ فيه حد الردة .. وبادرته طالبة من الطالبات قائلة : أنعتبر ابن تيمية كافراً بذلك : فقال: يمكن يكون رجع عن كلامه .. ولا نعلم له رجوعاً ، ولكنه زعم في مقام آخر أيضاً أنه لو قام من قبره لنفذ فيه حكم الردة ..

الاهداف البعيدة : -

أعود فاقول إن السبب في إرادة هدم شيخ الاسلام ابن تيمية من هذا الرجل وأمثاله معروف . لأن كتب شيخ الاسلام أنوار هاديات لكل زيف وبهتان ، وتضليل وهذيان ، ولذلك يحاربها كل من أراد أن يبني له مجدا في الظلام ، ويطمس بعض البصائر ويتخذ مجموعة من الخفافيش تعيش معه في الجحور ..

ولذلك يحاذر كل المحاذرة أن يسمع أحد منهم كلمة حق ، أو يقرأ كتابا يفضح باطله وزوره وتخليطه ..

وقد بادر مجموعة من الإخوة فكتبوا بعض المقالات في الصحف رداً على فرية هذا الاستاذ على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكتبت مقالاً سريعا في الجريدة رداً على هذه الفرية وكان هذا نصه : ـ

متى يكون مخالف الاجماع كافرا ؟

● يعرف علماء الأصول الإجماع بأنه اتفاق علماء الاسلام في عصر من العصور بعد وفاة الرسول ﷺ على مسألة من مسائل الدين . ويضربون أمثلة لذلك باتفاق المسلمين على بيعة الصديق ، وحروب الردة ، وولاية الفاروق ، وإعطاء الجدة السدس من الميراث . ونحو ذلك من أمور اشتهرت وعمل بها المسلمون وافتى بها جميع الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ .

ويجعلون مخالف هذا الاجماع الظاهر كافرا وخاصة اذا كان الاجماع مستندا الى نص شرعي صريح كتحريم الخمر ، والصلوات الخمس وايجاب التيمم عند فقد الماء ونحو ذلك ما لم يكن مخالف هذا الاجماع متأولا او جاهلا .

وفي دراسة عن الاجماع عمد أحد أساتذة كلية الشريعة بجامعة الكويت أمام طالبات من الكلية إلى ضرب أمثلة لمن خالف إجماع المسلمين فلم يجد مثلا لذلك إلا الامامين الجليلين : شيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم فاعلن الاستاذ للطالبات أنهما خالفا إجماع المسلمين لانهما قالا بفناء نار الاخرة بعد أحقاب طويلة من عذاب الكفار فيها .

اقول لم يجد الاستاذ إلا هذين الامامين ليدلل على مخالفة الاجماع ، ولم يكتف بذلك بل زعم ان الشيخ ابن تيمية سجن من أجل فتواه تلك وأنه مات في السجن من أجل ذلك ، ولم لم يمت في السجن لنفذ فيه حكم الردة !!

وكلام الاستاذ هذا فيه كثير من الاغاليط بل والاكاذيب عدا عما فيه من عدوان ، وافساد لعقول الشباب والناشئة وتنفير من علماء الاسلام ونحن نبين كل ذلك بحمد الله سبحانه :

اولا : الامام ابن تيمية لم يدخل السجن قط في هذه المسألة بالرغم من أنه

دخل السجن مرارا وتكرارا ، ودخوله السجن من فضل الله عليه ، وكذلك فان هذه المسألة لم تكن قط مثارة في عهده ممن أنكر عليه شيئا من أقواله وانما كان آخر مرة سجن فيها شيخ الاسلام - رضي الله عنه - في مسألة شد الرحال لزيارة القبور التي أنكرها هو عملا بالحديث الصحيح «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد الاقصى » ولما أجمعت عليه الامة ، أن السفر لزيارة القبور سفر معصية ، ولكن عباد القبور في زمانه ألبوا عليه بعض من لا فقه لهم من الأمراء فسجن لذلك ووافته المنية في سجن قلعة دمشق من أجل ذلك وليس من أجل قوله بفناء النار كما زعم استاذ كلية الشريعة .

ثانيا : قضية القول بفناء النار ليست ابتداعا لشيخ الاسلام ابن تيمية[1] وابن القيم وانما قال بها جمهور كبير من الصحابة والتابعين كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابو سعيد الخدري ، وابو هريرة وعبد الله بن مسعود ، وعلي ابن ابي طالب ، والحسن البصري ، وكثير من ائمة التابعين وعلماء التفسير فكيف تكون هذه القضية من قضايا الاجماع وهؤلاء جميعا مخالفون لذلك ، بل قال الامام ابن القيم انه لو طلب ممن يقول بالاجماع في هذه المسألة : أن ينقل عن عشرة فقط من الصحابة فما دونهم الى الواحد لم يجد الى ذلك سبيلا .. فكيف يدعي الإجماع في مثل ذلك ؟

ثالثا : الكلام الذي رمى به الاستاذ شيخ الاسلام ابن تيمية كلام عظيم وبهتان كبير فتكفير المسلم شيء عظيم فكيف بتكفير إمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلامهم لا يوجد لليوم عالم قد نال من ثناء العلماء عليه مثل ما نال هذا الرجل .

وحسبك من ذلك قول تلميذه الحافظ الذهبي: « لو حُلّفت بين الركن والمقام لَحَلفت انني ما رأيت بعيني مثله ، ولا رأي هو مثل نفسه في العلم » وقول تلميذه الحافظ المزي : «ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت احدا اعلم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه» وقول الامام ابن

---

(١) الحق أن ابن تيمية ذكر في هذه المسألة قولين للسلف ولم يرجح واحداً منهما وانما الذي رجح القول بالفناء هو ابن القيم رحمه الله .

دقيق العيد : «لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجع كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد» .

ومثل هذا القول ايضا عن ابي حيان شيخ النحاة .. ولم تؤلف تراجم في الاسلام لرجل مثله . وهو الذي اتبع جنازته أهل دمشق كلها ، وقد حضر من النساء فقط خمسة عشر الف امرأة . ومائتي الف رجل . ولا يعرف جنازة مثلها في الاسلام الا للامام احمد بن حنبل رضي الله عنه فالاقدام على تكفير رجل مثل هذافي حلقة من حلقات العلم وفي كلية الشريعة شيء عظيم جدا .

● وقد يقول قائل إن كلام الأستاذ لا يتضمن التكفير وأقول هذا قول خاطىء .. اولا : لان الاستاذ كان في معرض بيان من خالفوا الاجماع ومعلوم أن مخالف الإجماع كافر ، وثانيا : أنه زعم ان علماء عصره حكموا بكفره .. وكان هذا إقرار منه بذلك ، وثالثا : انه قال لو لم يمت لنفذ فيه حكم القتل وحكم القتل لا ينفذ في مثل هذه الحالة المزعومة الا للردة .. ورابعا : أنه زعم انه لم يعرف له رجوع عن قوله هذا . وخامسا : ان هذا الاستاذ يلقى الكفر على كل من يتوهم أنه يخالفه وهذا دأبه ابدا .

رابعا : كان بودنا ألا يستغل الاستاذ منصبه ومقامه وسط طالبات قد يظن أنهن لن يتمكن من البحث والمعرفة فيبتلعن السموم التي ينفثها لهن .. أقول كان بودنا ألا يستغل الاستاذ ذلك وان يعمد الى مخالفي الاجماع الحقيقيين كمن زعموا أن القران فقط كاف لنا دون السنة النبوية ، ومن زعموا ان الدين أخلاق وعبادات فقط وليس حكما وتشريعاً ، ومن غيروا وبدلوا بعد الرسول وجعلوا ظاهر القران والسنة في زعمهم كفر ، ونفوا عن الله اسماءه وصفاته العلية ، ومن قالوا بوحدة الوجود وان المخلوق هو عين الخالق ، ومن أجازوا التوسل بالأموات والطواف بالقبور وشد الرحيل الى المزارات ، والسجود على العتبات ونحو هذا كثير من الذين ارادوا هدم دين الاسلام بالفعل . اما أن يعمد الى امام عاش طيلة دهره مجاهدا بسيفه وقلمه محاربا في كل اتجاه فلا يجد الأستاذ كافرا في الامة مخالفا لاجماعها غيره .. سبحان الله اين الفكر والنظر بل اين الدين والخلق ؟!

خامسا : نحن نقول للاستاذ : ان زمنا كان يمكن فيه التدليس على الناس

وطمس الحقائق قد ولى ، وان الطالبات اللاتي ظننت انهن لسن اهلا للبحث والتحري ومعرفة الحق لسن كذلك وسيصلن حتما بعون الله ومشيئته الى معرفة الحق ان كان معك او عليك وان من يطاول ابن تيمية ويرميه بسهم حتما سيعود سهمه الى نحره .. وان اناسا يدافعون عنك الان ، ولا يدافعون عن حرمة الاموات يغشونك ويغشون انفسهم، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «ومن عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب» ، والرسول يقول انتم شهداء في الارض .. من شهد له وجبت له الجنة ، وقد شهد اهل دمشق كلها في عصر ابن تيمية جنازته وشهدوا له وبكوه احر ما يكون البكاء ، ولم يكن ذلك اصطناعا ولا دعاية وانما كان شهادة وهداية من الله . فانظر اين وضعت نفسك . وانتظر غدا يوم يعرف الناس الحقائق ، وتنجلي الامور أن العلم ليس باعتجار العمامة ، ولا تبديل البشوت ، والاختيال في الأردية . وتكفير علماء الاسلام واحتقارهم وتحذير الشباب منهم .

سادسا : وفي الختام نسأل الاستاذ هذه الاسئلة نرجو جوابها .. من اين علمت ان شيخ الاسلام ابن تيمية سجن اخر مرة في قوله بفناء النار؟ واين اجماع المسلمين الذي زعمته في هذه القضية ؟ وهل يكون اجماعا ما خالفه جمهور من الصحابة والتابعين ؟ وماذا تقول في هؤلاء الصحابة الذين خالفوا اجماعك المزعوم؟ هل كفروا هم ايضا مع ابن تيمية وابن القيم؟ ومن الذي حكم في الشيخ بحكم الردة ؟ وما هو حكم من كفر اماما من ائمة المسلمين اجمعت الامة على امامته وعدله وعلمه وتقواه ؟ .. نرجو ان نتلقى ردا منكم على اسئلتنا هذه .

وقد رأيت من واجبي قياماً بحق إمام من أجل أئمة الأمة الاسلامية لا يوجد اليوم مسلم يعرف التوحيد حقا الا وهو مدين له بالعلم والفضل فهو الذي أنار للأمة بعده طريق الله بعد تمالأ الباطنية والقرامطة والغلاة والرافضة ، والصوفية ، والحلولية ، والمتفلسفة على افساد دين المسلمين وطمس طريق رب العالمين ، فقام في هذه الايام يصاول كل هذا الباطل بقلمه السيال ، ونور كلماته الوقاد ، وسيفه القاطع فما ابقى لهم شبهه الا ورفعها ، ولا تلبيساً الا وكشفه ، ولا ظلاما الا وبدده . أقول رأيت من واجبي أن

أقتبس جذوة من نور هذا الشيخ الجليل ، وأعرض على ناشئتنا الاسلامية لمحة من أضوائه اللامعة ولست في هذا الا قابسا من جذوته ، وناقلا عمن كتب عنه ، واني لأرجو في مستقبل حياتي ان اطال الله في عمري ان اجمع ترجمة مستفيضة له اجعل القاريء يعيش بها مع هذا الرجل حياته ساعة بساعة ، ويجلس في حلقات علمه تلميذا حلقة حلقة ، ودرسا درسا ، ولعل الله ان يمكنني من ذلك واما الآن فالى هذه اللمحات من حيات شيخنا واستاذنا شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله .

كتبه : عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت الأحد ١٥ صفر ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٩٨٣/١١/٢٠

الباب الأول

ابن تيمية : الاعداد الرباني

أول ما يطالعنا في دراسة حياة شيخ الاسلام ابن تيمية هو هذا الاعداد والعناية الربانية التي كلأت هذا الامام منذ ان كان صغيرا والى ان توفاه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يكاد يجمع عليه كل الذين ترجموا له . وكتبوا عنه ممن أراهم الله حقيقة هذا الرجل العجيب فكأن كل الظروف والأحداث كانت تتهيأ لاستقبال هذا المجدد .. ولا شك أن القارىء الذي سيستمر معنا مطالعاً هذه المقتطفات واللمحات من حياة شيخنا شيخ الاسلام سيخرج بهذه النتيجة .

فالعالم الذي أظلم ظلاما يكاد أن يكون كاملاً قبل أن يبدأ هذا الرجل دعوته قد كان يتطلع وينتظر قدوم مثل هذا الرجل ليبدد ظلمات الفلسفة والزندقة ، والالحاد ، والشرك بكل مظاهره ، والباطنية بكل أعلامها والاتحادية ، وأيضاً ظلام الحكام المتجبرين والعملاء المأجورين ، وأكثر من هذا ظلام وعدوان التتر المتسترين بالاسلام ، والنصيرية والرافضة المعادين لأهل الاسلام ، والموالين لأهل الكفر والطغيان لقد كان العالم الاسلامي في أمس الحاجة الى عالم مجدد جريء شجاع يستطيع أن يقول الحق لكل أولئك وهو لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يخشى سجنا ولا تعذيباً ، ولا غربة ولا نفيا ..

بل ولا قتلاً .. فكان ابن تيمية الذي جعله الله أولا وعاء عظيما استوعب علم الكتاب والسنة ، ثم وسع كل علوم وترهات وأكاذيب أولئك الضلال وعرف بعد ذلك كيف يكر عليها ويبطلها باطلا باطلا ، ولا يستطيع أحد منهم أن يقف أمامه أو يحاربه أو يلبس على الناس عنده .. والآن تعالو نطالع عناية الله بهذا الرجل منذ أن كان صبيا .

شهادة ابن عبد الهادي :

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي في «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» : انبهر أهل دمشق من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه . واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق ، وقال : سمعت في البلاد بصبي يقال له : أحمد بن تيمية ، وأنه سريع الحفظ ، وقد جئت قاصداً ، لعلي أراه ، فقال له خياط : هذه طريق كتّابه ، وهو إلى الآن ما جاء . فاقعد عندنا ، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتّاب[1] . فجلس الشيخ الحلبي قليلاً . فمر صبيان ، فقال الخياط: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير: هو أحمد بن تيمية . فناداه الشيخ . فجاء إليه . فتناول الشيخ اللوح منه ، فنظر فيه ثم قال له : امسح يا ولدي هذا ، حتى أملي عليك شيئاً تكتبه ، ففعل ، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر ، أو ثلاثة عشر حديثاً ، وقال له : اقرأ هذا ، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته اياه . ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضا كأحسن ما أنت سامع . فقال له : يا ولدي، امسح هذا ، ففعل . فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ، ثم قال : اقرأ هذا ، فنظر فيه، كما فعل أول مرة . ثم أسمعه إياه كالأول . فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم . فان هذا لم يُرَ مثله .

---

(١) الكتّاب : مدرسة صغيرة لتحفيظ القرآن .

الباب الثاني

ابن تيمية : العالم الذي لم ير العلماء مثله

كان لا بد لابن تيمية الذي سيقابل هذا الواقع الأليم بكل مآسيه وعقباته أن يكون عالما من طراز آخر، وأن يقر له العلماء جميعا بالفضل والسبق عليهم ، وأن يشهدوا أن أعينهم لم تر مثل هذا الرجل ، وذلك حتى يستطيع أن يشق طريقه الى الاصلاح ، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بجهل أو قصور وتعالوا نشاهد شهادات العلماء له في عصره وبعد عصره بالعلم الذي لا يضارع ولا يماثل ..

١ ـ شهادة تلمذة الامام الذهبي

قال الذهبي في معجم شيوخه : أحمد بن عبد الحليم ـ وساق نسبه ـ الحراني ، ثم الدمشقي ، الحنبلي أبو العباس ، تقي الدين ، شيخنا وشيخ الإسلام ، وفريد العصر علماً ومعرفة ، وشجاعة وذكاء ، وتنويراً إلهياً ، وكرماً ونصحاً للأمة ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . سمع الحديث ، وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب وخرج ، ونظر في الرجال والطبقات ، وحصل ما لم يحصله غيره . برع في تفسير القرآن ، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال ، وخاطر

إلى مواقع الإشكال ميال ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها . وبرع في الحديث وحفظه ، فقلَّ من يحفظ ما يحفظه من الحديث ، معزوا إلى أصوله وصحابته ، مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل . وفاق الناس من معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوي الصحابة والتابعين ، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل يقوم بما دليله عنده . وأتقن العربية أصولا وفروعاً ، وتعليلا واختلافا . ونظر في العقليات ، وعرف أقوال المتكلمين ، وَرَدَّ عليهم ، وَنَبَّهَ على خطئهم ، وحذَّر منهم ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين. وأُوذى في ذات الله من المخالفين ،وأُخيف في نصر السنة المحضة ، حتى أعلى الله مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكبَتَ أعداءه ، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل ، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً ، وعلى طاعته ، وأحيي به الشام ، بل والإسلام ، بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولى الأمر لما أقبل حزب التتر والبغي في خيلائهم ، فظُنت بالله الظنون ، وزلزل المؤمنون، واشْرَأَبَّ النفاق وأبدى صفحته . ومحاسنه كثيرة ، **وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي ، فلو حلفت بين الركن والمقام ، لحلفت : أني ما رأيت بعيني مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه** . طبقات الحنابلة لابن رجب ٣٨٩ ، ٣٩٠

٥ **وقال الذهبي أيضا :**

وله خبرة تامة بالرجال ، وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه ، الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ، ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره ، واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة ، والمسند ، **بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .**

(المصدر السابق)

وقال أيضاً :

ولما كان معتقلا بالإسكندرية : التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده ، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر ، منها سبعة أحاديث بأسانيدها ، والكلام على صحتها ومعانيها ، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث . وذكر أسانيده في عدة كتب . وَنَبهً على العوالي . عمل ذلك كله من حفظه ، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه .
ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث . فأما حفظه متون الصحاح وغالب متون السنن والمسند : فما رأيت من يُدانيه في ذلك أصلا .

قال : وأما التفسير فمسلم إليه . وله من استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة . وإذا رآه المقرىء تحير فيه . ولفرط إمامته في التفسير ، وعظم اطلاعه . يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين . ويُوهي أقوالا عديدة . وينصر قولا واحداً ، موافقا لما دل عليه القرآن والحديث . **ويكتب في اليوم والليلة من التفسير ، أو من الفقه ، أو من الأصلين ، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل : نحواً من أربعة كراريس أو أزيد .**
قلت : وقد كتب « الحموية » في قعدة واحدة . وهي أزيد من ذلك . وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد . ا هـ
(المصدر السابق)

وقال الذهبي أيضا في بيان حملاته على المنحرفين :

وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق ، وفي بعضه هو مجتهد ، ومذهبه توسعة العذر للخلق ، ولا يكفر أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه .
قال : ولقد نصر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات ، وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون

والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياما لا مزيد عليه ، وبدَّعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحق المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده ، وحدة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال ، مع ما اشتهر عنه من الورع ، وكمال الفكر ، وسرعة الإدراك ، والخوف من الله ، والتعظيم لحرمات الله .

فجرى بينه وبينهم حملات حربية ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة ، فينجيه الله فإنه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة ، والاستعانة به ، قوي التوكل ، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يُدْمنها بكيفية وجمعية . وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء ، ومن الجند والأمراء ، ومن التجار والكبراء ، وسائر العامة تحبه ، لأنه منتصب لنفعهم ليلا ونهارا ، بلسانه وقلمه .

« وله حدة قوية تعتريه في البحث ، حتى كأنه ليث حَرِب . وهو أكبر من أن ينبه مثلى على نعوته . وفيه قلة مداراة ، وعدم تؤدة غالبا ، والله يغفر له . وله إقدام وشهامة ، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة ، فيدفع الله عنه . » ا هـ

(المصدر السابق)

وقال أيضا في وصف شجاعته :

وأما شجاعته : فبها تضرب الأمثال ، وببعضها يتضبه أكابر الأبطال . ولقد أقامه الله تعالى في نوبة قازان .[1] والنقى أعباء الأمر بنفسه . وقام وقعد وطلع ، ودخل وخرج ، واجتمع بالملك - يعني قازان - مرتين، وبقَطْلوشاه ، وبُولاى . وكان قپجق يتعجب من إقدامه وجراءته على المغول .»

وأقول : ان هذه والله الترجمة ما نال أحد من العلماء فيما أعلم منها قط ومن يستطيع أن يكتب الناس فيه كلاما صحيحا صادقا كالذي يكتبه هذا الامام المدقق الصادق رحمه الله .

(١) ملم من ملوك التتار قابله ابن تيمية وانكر عليه وأمره بطلاق اسرى المسلمين ففعل .

٢ ـ شهادة تلميذه الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المتوفي سنة ٧٤٤ هـ

« قال الشيخ ابن عبد الهادي : ثم لم يبرح شيخنا في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال والإشغال ، وبث العلم ونشره ، والاجتهاد في سبيل الخير ، حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل ، والشجاعة والكرم ، والتواضع والحلم والأناة والإنابة ، والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسائر أنواع الجهاد ، مع الصدق والعفة والصيانة ، وحسن القصد والإخلاص ، والابتهال إلى الله وكثرة الخوف منه ، وكثرة المراقبة له ، وشدة التمسك بالأثر ، والدعاء إلى الله وحسن الأخلاق ، ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، والصبر على من آذاه ، والصفح عنه والدعاء له ، وسائر أنواع الخير .

وكان رحمه الله سيفا مسلولا على المخالفين ، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين ، وإماما قائما ببيان الحق ونصرة الدين . وكان بحراً لا تكدِّره الدِّلاء ، وحبرا يقتدي به الأخيار الأولياء . طنَّت بذكره الأمصار وضنَّت بمثله الأعصار .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى (ولد سنة ٦٥٤ بالمزة . وتوفي سنة ٧٤٢) : ما رأيت مثله . ولا رأى هو مثل نفسه ، ولا رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه .

وقال الشيخ الحافظ أبو الفتوح محمد بن سيد الناس اليعمري الاندلسي ، ثم المصري (ولد سنة ١٩٧١ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٤) ـ بعد أن ذكر ترجمة الحافظ جمال الدين المزي ـ وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الأمام ، شيخ الإسلام ، تقي الدين ، أبي العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ـ فألفيته : **كاد يستوعب السنن والآثار حفظا ، إن تكلم في التفسير : فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه : فهو مدرك غايته ، أو ذاكر بالحديث : فهو صاحب علمه وروايته ، أو حاضر بالنِّحَل والملل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته . برز في كل فن على أبناء جنسه . ولم تر عين من رآه مثله .**

ولا رأت عينه مثل نفسه . كان يتكلم في التفسير، يحضر مجلسه الجم الغفير ، ويرتوون من بحر علمه العذب النمير ، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير ، إلى أن دب اليه من اهل بلده داء الحسد . وألَّب أهل النظر منهم ما ينتقد عليه في حنبليته من أمور المعتقد ، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً ، أوسعوه بسببه ملاماً ، وفَوَّقوا لتبديعه سهاماً ، وزعموا أنه خالف طريقهم ، وفرق فريقهم ، فتنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه ، ثم نازعه طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة ، ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة ، فكشف عن عيوب تلك الطوائف ، وذكر لها بوائق ، فآضت إلى الطائفة الأولى من منازعيه ، واستعانت بذوى الضعن عليه من مقاطعيه ، فوصلوا بالأمراء أمره ، وأعمل كل منهم في كفره فكره ، فكتبوا محاضر . وألَّبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر ، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالديار المصرية ، فنقل وأودع السجن ساعة حضوره ، واعتقل ، وعقدوا لإراقة دمه مجالس ، وحشدوا لذلك قوما من عمار الزوايا وسكان المدارس ، من كل متحامل في المنازعة، مخاتل بالمخادعة، ومن مجاهر بالتفكير مبارز بالمقاطعة ، يسومونه ريب المنون (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) . وليس المجاهر بكفره أسوأ حالا من المخاتل ، وقد دبت إليه عقارب مكره . فرد الله كيد كل في نحره . فنجاه الله على يد من اصطفاه ، والله غالب على أمره ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة ، إلى أن فُوِّض أمره إلى بعض القضاة ، فَقُلِّدَ ما تقلد من اعتقاله . ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله . وإلى الله ترجع الأمور . وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وكان يومه مشهوداً ، ضاقت بجنازته الطريق . وانتابها المسلمون من كل فج عميق ، وكان موته رحمه الله في ليلة العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ سجيناً بقلعة دمشق .[١]

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية .

٣ ـ شهادة قاضي الشافعية ومفتيهم ابن الزملكاني :

قال ابن كثير : ـ

وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من علماء عصره ، مثل القاضي الخوبي ، وابن دقيق العيد ، وابن النحاس ، والقاضي الحنفي قاضي قضاة مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم ، ووجدت بخط ابن الزملكاني [1] انه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدوين، وكتب على تصنيف له هذه الابيات :

ماذا يقولُ الواصفونَ لهُ — ومحاسنه جلَّتْ عن الحصرِ
هو حجةٌ للهِ قاهرةٌ — هو بيننَا أُعجُوبةُ الدّهرِ
هو آية في الخلق ظاهرة — انوارها أربت على الفجر

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء وممن يخطيء ويصيب ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه أيضا مغفور له كما في صحيح البخاري : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر «فهو مأجور . وقال الإمام مالك بن أنس : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا صاحب هذا القبر .»

---

(١) قال ابن كثير في وصف ابن الزملكاني : ـ

شيخ الشافعية بالشام وغيرها ، انتهت إليه رياسة المذهب تدريسا وإفتاء ومناظرة ، ويقال في نسبه السماكي نسبة إلى أبي دجانة سماك بن خرشة والله أعلم .

البداية والنهاية ص ١٤٠ ج ١٤

٤ ـ شهادة الحافظ جلال الدين السيوطي :

ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام ، علم الزهاد ، نادرة العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن الامام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ☆☆

أحد الأعلام ، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة .

وسمع ابن أبي اليسر . وابن عبد الدائم، وعدّة .

وعُنى بالحديث ، وخرج وانتقى ، وبرع في الرجال ، وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام ، وغير ذلك . وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين . والزهاد ، والأفراد ، ألف وثلاثمائة مجلدة ، وامتحن واوذى مرارا .

مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .» هـ .

(طبقات الحفاظ ص ٥١٦ ، ٥١٧)

٥ ـ شهادة أبو الحسن السبكي قاضي القضاة ..

ومما وجد في كتابٍ كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ أبي عبد الله الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين المذكور : أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره . وزخارة بحره . وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية . وفرط ذكائه واجتهاده . وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف . والمملوك يقول ذلك دائماً . وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل . مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة . ونصرة الحق . والقيام فيه لا لغرض سواه . وجريه على سنن السلف . وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى . وغرابة مثله في هذا الزمان . بل من أزمان .

٦ ـ شهادة الامام الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي رحمه الله

قال ابن حجر العسقلاني المولود في القاهرة والمتوفي بها سنة ٨٥٢ هـ صاحب كتاب فتح الباري شرح البخاري وكتاب التهذيب وهو الذي لقب بأمير المؤمنين في الحديث . قال تقريظا لكتاب الرد الوافر للامام ابن ناصر الدين الدمشقي وهو الذي كتبه مؤلفه ردا على ان من زعم من متعصبي الأحناف أنه لا يجوز تسمية ابن تيمية بشيخ الاسلام وأنه من فعل ذلك فقد كفر !! (انظر) فكتب ابن ناصر الدين الدمشقي كتابا سماه الرد الوافر ذكر فيه أكثر من بضع وثمانين اماماً من أئمة المسلمين كلهم سمي ابن تيمية بشيخ الاسلام ونقل نقولهم من كتبهم بذلك ، ولما قرأ الحافظ بن حجر رحمه الله هذا الكتاب الرد الوافر كتب عليه تقريظا هذا نصه :

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وقفت على هذا التأليف النافع ، والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لأجلها جامع ، فتحققت سعة اطلاع الامام الذي صنفه ، وتضلعه من العلوم النافعة بما عظمه بين العلماء وشرفه ، وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس ، وتلقيبه بشيخ الاسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية ويستمر غداً كما كان بالامس، ولا ينكر ذلك الا من جهل مقداره ، أو تجنب الانصاف ، فما أغلط من تعاطى ذلك واكثر عثاره ، فالله تعالى هو المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد السنتنا بمنه وفضله ، ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل الا ما نبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه : أنه لم يوجد في الاسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين ، واشار إلى أن جنازة الامام احمد كانت حافلة جداً شهدها مئات الوف ، ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك ، لما تأخر أحد منهم عن شهود جنازته ، وأيضاً فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الامام احمد ، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت اذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم ، بخلاف ابن تيمية فكان أمير البلد حين مات

غائباً . وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوساً بالقلعة ، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم عليه والتأسف (عليه) الا ثلاثة انفس، تأخروا خشية على أنفسهم من العامة .

ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث الا اعتقاد امامته وبركته لا بجمع سلطان ولا غيره ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : «أنتم شهداء الله في الارض» [1] . ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مراراً بسبب أشياء انكروها عليه من الاصول والفروع ، وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق ، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا حكم بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه حينئذ من أهل الدولة ، حتى حبس بالقاهرة ثم بالاسكندرية ، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده ، ووصفه بالسخاء والشجاعة ، وغير ذلك من قيامه في نصر الاسلام ، والدعوة إلى الله تعالى في السر والعلانية ، فكيف لا ينكر على من اطلق أنه كافر ، بل من أطلق على من سماه شيخ الاسلام الكفر ، وليس في تسمية بذلك ما يقتضي ذلك فانه شيخ في الاسلام بلا ريب ، والمسائل التي انكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً ، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه ، ومع ذلك فهو بشرٌ يخطىء ويصيب ، فالذي اصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي اخطأ فيه لا يقلد فيه ، بل هو معذور لان أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه ، حتى كان اشد المتعصبين عليه ، والقائمين في ايصال الشر اليه ، وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك ، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره ، ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قياماً على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر ، فيا قرة أعينهم إذ سمعوا بكفره ، ويا سرورهم اذا رأوا من يكفر من لا يكفره ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم

فالواجب على من تلبّس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة ، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل ، فيفرد من ذلك ما ينكر فيحذِّر منه على قصد النصح ، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء ، **ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب الا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم ، والتميز في المنطوق والمفهوم ، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم ! فضلا عن الحنابلة** ، فالذي يطلق عليه مع هذه الاشياء الكفر ، أو على من سماه شيخ الاسلام ، لا يلتفت اليه ، ولا يعول في هذا المقام عليه ، بل يجب ردعه عن ذلك إلى أن يراجع الحق ويذعن للصواب ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صفة خطه أدام الله بقاءه .

قاله وكتبه احمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي عفا الله عنه ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول عام خمسة وثلاثين وثمانمائة حامداً لله ، ومطلياً على رسوله محمد وآله ومسلما .ا هـ [١]

(١) الرد الوافر للامام ابن ناصر الدين الدمشقي بتحقيق زهير الشاويش ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الباب الثالث

ابن تيمية : العابد الورع

ان مجدداً يقوم في مثل تلك الظلمات التي كانت في القرن الثامن الهجري لا يمكن أن يفلح في دعوته بمجرد العلم حتى لو كان علماً لا يصارع ولا يصاول ولا يطاول .. بل لا بد وأن يكون مع هذا العلم ايمان وتقوى ، واستمداد من الله ورجوع دائم اليه ، وقيام بحق العباد ، واخلاص في كل ذلك لله حتى يبارك هذا العلم وتؤتى ثماره ، وكذلك كان شيخنا شيخ الاسلام العابد الورع التقي وهذه شهادة تلميذه الحافظ أبي عمر بن علي البزار رحمه الله .قال في بيان عبادته وورعه :ـ

قال أما تعبّده رضي الله عنه فإنه قَلَّ أنْ سُمع بمثله ، لأنه كان قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه ، حتى إنّه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يُرادُ له من أهل ولا من مال . وكان في ليلة متفرّداً عن الناس كلّهم ، خالياً بربّه عزّ وجلّ ، ضارعاً ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم . مكرّراً لأنواع التعبّدات الليليـة والنهاريّـة . وكان إذا ذهب الليْل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنّها قبل إتيانه اليهم . وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة اتيانه بتكبيرة الاحرام . فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميد يمنةً ويُسرة . وكان إذا قرأ يمدّ قراءته مدّاً كما صحّ في قراءة رسول الله ﷺ . وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفَرْض . وكان يُخفُّ جلوسَه للتشهّد الأوّل خفّة شديدة ، ويجهرُ بالتسمية الأولى حتى يسمعَ كلُّ مَنْ

حضر . فإذا فرغ من الصلاة أثنى على الله عزّ وجلّ هو ومَنْ حضر بما ورد من قوله «اللهم أنتَ السلام ومنك السلام . الحديث» . ثم يُقبل على الجماعة ، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذ . ثم يسبّحُ الله ويحمدُه ويكبّره ثلاثاً وثلاثين ، ويختم المائة بالتهليل. كما اورد ، وكذا الجماعة . ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين أجناس ما ورد .

وكان غالب دعائه « اللهم انصرْنا ولا تَنْصر علينا ، وأمكر لنا ولا تمْكر علينا ، وأهدِنا ويسِّرْ الهدى لنا . اللهم اجعلنا لك شاكرين ، لك ذاكرين ، اليك راغبين ، لك مُخْبِتين ، اليك راهبين، لك مطاويع . ربّنا تقبّل توباتنا ، وأغسل حَوْباتنا، وثّبت حججنا ، واهْدِ قلوبنا ، واسلل سخيمةَ صدورنا » يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبّي صلّى الله عليه وسلم .

ثم يشرع في الذكر . وكان قد عُرِفَتْ عادتُه لا يُكلِّمُه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر . فلا يزال في الذكر يسمع نفسه ، وربما يُسمَعُ ذكرُه من الروحانّية ، مع كوْنه في خلال ذلك يُكثر من تقليب بصره نحو السماء . هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس وتزول ، وقتَ النهي عن الصلاة .

وكنتُ مدّة إقامتي بدمشق ملازمه جلَّ النهار وكثيراً من الليل . وكان يُدنيني منه حتى يُجلسني الى جانبه . وكنتُ أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ . فرأيته يقرأ الفاتحة ويكرّرها ، ويقطعُ ذلكَ الوقت كلّه ، أعني من الفجر الى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها. ففكّرتُ في ذلك لِمَ قد لزم هذه السورة دون غيرها . فبان لي ، والله أعلم ، أنّ قصده بذلك أن يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وما ذكره العلماء: هل يستحبّ تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن أو العكس؟ فرأي رضي الله عنه أنّ في الفاتحة وتكرارها حينئذ جَمْعاً بين القولين، وتحصيلاً للفضيلَتَيْن.وهدا من قوة فطنته وثاقب بصيرته.

ثم إنه كان يركع ، فإذا أراد سماع حديثٍ في مكانٍ آخر سارع اليه من فوره ، مع من يصحبه . فقل أن يراه أحدٌ ممن له بصيرة إلا وانكب على يديه فيقبلها ، حتى إنه كان اذا رآه أرباب المعايش يتخبطون من حوانيتهم للسلام عليه والتبرك به ، وهو مع هذا يعطي كلا منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره ، وإذا رأى منكراً في طريقه أزاله ، أو سمع بجنازة سارع الى الصلاة

عليها ، أو تأسف على فواتها ، وربما ذهب الى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث ، فصلى عليه . ثم يعود الى مسجده ، فلا يزال تارة في افتاء الناس ، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يُصلّي الظهر من الجماعة ، ثم كذلك بقية يومه .

وكان مجلسه عاماً للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى . وقد وسع كل من يرد عليه من الناس . يرى كلٌّ منهم في نفسه أن لم يكرم أحداً بقدره . ثم يصلّي المغرب ، ثم يتطوّع بما يسره الله . ثم أقرأُ عليه من مؤلفاته أنا أو غيري ، فيُفيدُنا بالطرائف ، ويمدنا باللطائف ، حتى يصلّي العشاء ثم بعدها كما كنّا وكان : من الإقبال على العلوم الى أن يذهب هوي من الليل طويل . وهو في خلال ذلك كله ، في النهار والليل ، لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده ، ويستغفره .

وكان رضي الله عنه كثيرا ما يرفع طَرْفَه الى السماء ، لا يكادُ يفترُ عن ذلك ، كأنه يرى شيئاً يثبته بنظره . فكان هذا دأبه مدةَ إقامتي بحضرته . فسبحان الله ما أقْصَرَ ما كانت ! يا ليْتَها كانت طالت . ما مرَّ على عمري الى الآن زمانٌ كان أحبَّ إليَّ من ذلك الحين ، ولا رأيتني في وقتٍ أحسن حالاً منّي حينئذ ، وما كان إلاّ ببركة الشيخ رضي الله عنه .

وكان في كل أسبوع يعودُ المرضى ، خصوصاً الذين بالمارستان وأخبرني غير واحد ممن لا يُشكُّ في عدالته أنّ جميع زمن الشيخ ينقضي على من رأيْته . فأيُّ عبادة واجتهاد أفضلُ من ذلك ؟ فسبحان الموفّق من يشاء لما يشاء .

ورعه رضي الله عنه :

وكان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهي اليها في الورع . لأن لله تعالى أجراه مدة عمره كلّها عليه . فانه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ، ولا تجارة ، ولا مشاركة ، ولا زراعة ، ولا عمارة . ولا كان ناظراً مُباشراً لمال وقف ، ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ، ولا كان مدخرا دينارا ولا درهماً ولا متاعا ولا طعاماً ، وانما كانت بضاعته مدة حياته ، وميراثه بعد وفاته ، رضي الله عنه ، العلم اقتداء بسيد المرسلين

وخاتم النبيين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، فإنه قال : «ان العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍ وافر .»

وكان ينّبه العاقل بحسن الملاطفة ورقيق المخاطبة ليختار لنفسه طريقتهم ، ويسلك سبيلهم . وإن كان دونها من الطرائق من اتخاذ المباحات جائز ، لكن العاقل يدله عقله على طلب الأعلى . فانظر بعين الانصاف الى ما وفق الله له هذا الامام وأجرى ، مما أقعد عنه غيره وخذله عن طلبه ، ولكن لكل شيء سبب ، وعلامة عدم التوفيق سلب للأسباب . ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا التخلي عن غير الضروري منها ، فلما وفق الله هذا الإمام لرفض غير الضروري منها انصبت عليه العواطف الالهية فحصل بها كل فضيلة جليلة ، بخلاف غيره من علماء الدنيا ، مختاريها وطالبيها والساعين لتحصيلها ، فإنهم لما اختاروا ملاذها وزينتها ورياستها انسدت عليهم غالباً طرق الرشاد فوقعوا في شركها يخبطون خبط عشواء ، ويحطبونها كحاطب ليل ، لا يبالون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يتأوّلون إلا ما يحصل لهم اغراضهم الدنيئة ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة ، فهم متعاضدون على طلبها متحاسدون بسببها ، أجسامهم ميتة ، وقلوبهم من غيرها فارغة ، وظواهرهم مزخرفة معمورة ، وقلوبهم خربة مأبورة . ولم يكفهم ما هم عليه حتى أصبحوا قالين رافضها ، معادين باغضها . ولما رأوا هذا الامام عالم الآخرة ، تاركاً هم عليه من تحصيل الحطام من المشتبه الحرام ، رافضاً الفضل المباح فضلا عن الحرام ، تحققوا أن أحواله تفضح أحوالهم وتوضح خفي انفعالهم ، وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم الشيطانية ، المباينة لصفاته الروحانية . فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوا ، وأنسوا أنهم ثعالب وهو أسد . فحماه الله تعالى منهم بحراسته ، وصنع له غير مرة كما صنع لخاصته ، وحفظه مدة حياته وحماه ، ونشر له عند وفاته علماً في الأقطار بما والاه . انتهى [1]

---

(١) الاعلام العلية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية ص ٣٧ ـ ٤٣ .

الباب الرابع

ابن تيمية : العالم المبتلي والامام الممتحن

وكان لا بد لامام للناس ، وقدوة للعالمين في زمانه أن يمتحن ويبلى .. الا تنظر الى قوله تعالى (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما) الآية

فهل كان اماما للناس بعد ان ابتلاه الله بأن يقول الحق لا يخاف في الله لومة لائم ويحطم الاصنام ويجادل قومه والنمرود في باطلهم ، ويطرد من بلده ويهاجر ويؤمر بذبح ابنه .. باختصار لا امامة الا بعد بلاء ..

وهذا ما كان من شأن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فكان والبلاء صاحبين لا يفترقان ، وكيف لا وهو القائم بأمر الله الداعي الى سبيل الله ، المجاهد أهل الشر جميعا على اختلاف طوائفهم في ذات الله . متفرغا فلا زوجة ولا ولد ولا ضيعة ولا تجارة ، بل ولا وطن ولا اقامة بل رحيل دائم في الله ، ولذلك كان بلاؤه على قدر منزلته من العلم والعمل والا بماذا كما قال رسول الله ﷺ : أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه فان كان في دينه شدة زيد له في البلاء» . متفق عليه .

وتفاصيل البلاء التي تعرض لها شيخ الاسلام ابن تيمية شيء طويل جدا . فما كان رضي الله عنه ينتهي من محنة الا ليدخل في اخرى ولا يخرج من سجن الا ليوضع في آخر حتى مات مسجونا آخر عمره ، ولا ينتهي من قتال مع

طائفة باغية الا ويدخل قتالا آخر .. وقد جمع الامام ابن رجب الحنبلي خلاصة للفتن التي تعرض لها ابن تيمية فيقول :ـ

الابتلاءات التي ابتلي بها الشيخ رضي الله عنه :

قال الامام ابن رجب الحنبلي رحمه الله المتوفي سنة ٧٩٥ هـ

وأما محن الشيخ : فكثيرة ، وشرحها يطول جداً .

وقد اعتقله مرة بعض نواب السلطان بالشام قليلا ، بسبب قيامه على نصراني سب الرسول ﷺ ، واعتقل معه الشيخ زين الدين الفاروقي ، ثم أطلقهما مكرمين .

ولما وصف المسألة «الحموية» في الصفات : شنع بها جماعة ، ونودي عليها في الأسواق على قصبة ، وأن لا يستفتي من جهة بعض القضاة الحنفية . ثم انتصر للشيخ بعض الولاة ، ولم يكن في البلد حينئذ نائب ، وضرب المنادي وبعض من معه ، وسكن الأمر .

ثم امتحن سنة خمس وسبعمائة بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان؟ فجمع نائبه القضاه والعلماء بالقصر، وأحضر الشيخ ، وسأله عن ذلك؟ فبعث الشيخ من أحضر من داره «العقيدة الواسطية» فقرأوها في ثلاث مجالس ، وحاققوه ، وبحثوا معه ، ووقع الاتفاق بعد ذلك على أن هذه عقيدة سنية سلفية ، فمنهم من قال ذلك طوعا ، ومنهم من قاله كرها .

وورد بعد ذلك كتاب من السلطان فيه : أنما قصدنا براءة ساحة الشيخ ، وتبين لنا أنه على عقيدة السلف .

ثم ان المصريين دبروا الحيلة في أمر الشيخ ، ورأوا أنه لا يمكن البحث معه ، ولكن يعقد له مجلس ، ويدعى عليه ، وتقام عليه الشهادة . وكان القائمون في ذلك منهم : بيبرس الجاشنكير ، الذي تسلطن بعد ذلك ، ونصر المنجى وابن مخلوف قاضي المالكية ، فطلب الشيخ على البريد الى القاهرة ، وعقد له ثاني يوم وصوله ـ وهو ثاني عشرين رمضان سنة خمس وسبعمائة ـ مجلس بالقلعة ، وادعى عليه عند ابن مخلوف قاضي المالكية ، أنه يقول : إن

الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت ، وأنه على العرش بذاته ، وأنه يشار إليه بالاشارة الحسية .[1]

وقال المدعي : أطلب تعزيزه على ذلك ، التعزيز البليغ - يشير الى القتل على مذهب مالك / فقال القاضي : ما تقول يا فقيه ؟ فحمد الله وأثنى عليه ، فقيل له : أسرع ما جئت لتخطب ، فقال أأُمنع من الثناء على الله تعالى؟ فقال القاضي : أجب، فقد حمدت الله تعالى . فسكت الشيخ ، فقال : أجب . فقال الشيخ له : من هو الحاكم في ؟ فأشاروا : القاضي هو الحاكم ، فقال الشيخ لابن مخلوف : أنت خصمي ، كيف تحكم فيَّ؟ وغضب ، ومراده : إني وإياك متنازعان في هذه المسائل ، فكيف يحكم أحد الخصمين على الآخر فيها ؟ فأقيم الشيخ ومعه أخواه ، ثم رد الشيخ ، وقال : رضيت أن تحكم فيَّ ، فلم يمكن من الجلوس ، ويقال : ان اخاه الشيخ شرف الدين ابتهل ، ودعا الله عليهم في حال خروجهم ، فمنعه الشيخ ، وقال له : بل قل : اللهم هب لهم نورا يهتدون به الى الحق .

ثم حبسوا في برج أياما ، ونقلوا الى الجب ليلة عيد الفطر ، ثم بعث كتاب سلطاني الى الشام بالحط على الشيخ ، والزم الناس - خصوصا أهل مذهبه - بالرجوع عن عقيدته ، والتهديد بالعزل والحبس ، ونودى بذلك في الجامع والأسواق . ثم قرىء الكتاب بسدة الجامع بعد الجمعة ، وحصل أذى كثير للحنابلة بالقاهرة ، وحبس بعضهم ، وأخذ خطوط بعضهم بالرجوع . وكان قاضيهم الحراني قليل العلم .

ثم في سلخ رمضان سنة ست : أحضر سلار - نائب السلطان بمصر - القضاة والفقهاء ، وتكلم في إخراج الشيخ ، فاتفقوا على أنه يشترط عليه أمور ، ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة ، فأرسلوا إليه من يحضره ، وليتكلموا معه في ذلك ، فلم يجب إلى الحضور ، وتكرر الرسول إليه في ذلك ست مرات ، وصمم على عدم الحضور ، فطال عليهم المجلس ، فانصرفوا من غير شيء .

ثم في آخر هذه السنة وصل كتاب إلى نائب السلطنة بدمشق من الشيخ ، فأخبر بذلك جماعة ممن حضر مجلسه ، وأثنى عليه : وقال : ما رأيت مثله ، ولا أشجع منه . وذكر ما هو عليه في السجن : من التوجه إلى الله تعالى ، وأنه

لا يقبل شيئا من الكسوة السلطانية ، ولا من الأدرار السلطاني ، ولا تدنس بشيء من ذلك .

ثم في ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة دخل مهنا بن عيسى أمير العرب إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى السجن ، وأخرج الشيخ منه ، بعد أن استأذن في ذلك ، وعقد للشيخ مجالس حضرها أكابر الفقهاء ، وانفصلت على خير .

وذكر الذهبي والبزالي وغيرهما : أن الشيخ كتب لهم بخطه مجملا من القول وألفاظاً فيها بعض ما فيها ، لما خاف وهدد بالقتل ، ثم أطلق وامتنع من المجيء إلى دمشق . وأقام بالقاهرة يقرىء العلم ، ويتكلم في الجوامع والمجالس العامة ، ويجتمع عليه خلق .

ثم في شوال من السنة المذكورة : اجتمع جماعة كثيرة من الصوفية ، وشكوا من الشيخ إلى الحاكم الشافعي ، وعقد له مجلس لكلامه في ابن عربي وغيره ، وادعى عليه ابن عطاء (هو ابن عطاء الله السكندري الصوفي صاحب الحكم). بأشياء ، ولم يثبت منها شيئا ، لكنه اعترف أنه قال : لا يستغاث بالنبي ﷺ ، استغاثة بمعنى العبادة ، ولكن يتوسل به ، فبعض الحاضرين قال : ليس في هذا شيء .

ورأى الحاكم ابن جماعة : أن هذا إساءة أدب ، وعنفه على ذلك ، فحضرت رسالة إلى القاضي : أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة في ذلك ، فقال القاضي : قد قلت له ما يقال لمثله .

ثم إن الدولة خيروه بين أشياء ، وهي الاقامة بدمشق ، أو بالاسكندرية ، بشروط ، أو الحبس ، فاختار الحبس . فدخل عليه أصحابه في السفر إلى دمشق ، ملتزما ما شرط عليه ، فأجابهم ، فأركبوه خيل البريد ، ثم ردوه في الغد ، وحضر عند القاضي بحضور جماعة من الفقهاء ، فقال له بعضهم : ما ترضى الدولة إلا بالحبس . فقال القاضي : وفيه مصلحة له ، واستناب التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس ، فامتنع، وقال : ما ثبت عليه شيء ، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي ، فتحير ، فقال الشيخ : أنا أمضي إلى الحبس ، وأتبع ما تقتضيه المصلحة ، فقال الزواوي المذكور : فيكون في موضع يصلح لمثله ، فقيل له : ما ترضى الدولة إلا بمسمى الحبس ، فأرسل إلى حبس

القاضي وأجلس في الموضع الذي أجلس فيه القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز لما حبس ، وأذن أن يكون عنده من يخدمه . وكان جميع ذلك بإشارة نصر المنبجي .

واستمر الشيخ في الحبس يستفتي ويقصده الناس ، ويزورونه ، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء وأعيان الناس .

وكان أصحابه يدخلون عليه أولا سرا ، ثم شرعوا يتظاهرون بالدخول عليه ، فأخرجوه في سلطنة الششنكير الملقب بالمظفر ، إلى الإسكندرية على البريد ، وحبس فيها في برج حسن مضيء متسع ، يدخل عليه من شاء ، ويمنع هو من شاء ، ويخرج إلى الحمام إذا شاء . وكان قد أخرج وحده ، وأرجف الأعداد بقتله وتفريقه غير مرة ، فضاقت بذلك صدور محبيه بالشام وغيره ، وكثر الدعاء له . وبقي في الإسكندرية مدة سلطنة المظفر .

فلما عاد الملك الناصر إلى السلطنة وتمكن ، وأهلك المظفر ، وحمل شيخه نصر المنبجي، واشتدت موجدة السلطان على القضاة لمداخلتهم المظفر ، وعزل بعضهم : بادر بإحضار الشيخ إلى القاهرة مكرما في شوال سنة تسع وسبعمائة ، وأكرمه السلطان إكراما زائداً ، وقام إليه ، وتلقاه في مجلس حفل ، فيه قضاة المصريين والشاميين ، والفقهاء وأعيان الدولة . وزاد في إكرامه عليهم ، وبقى يسارّه ويستشيره سويعة ، وأثنى عليه بحضورهم ثناء كثيرا ، وأصلح بينه وبينهم . ويقال : إنه شاوره في أمرهم به في حق القضاة ، فصرفه عن ذلك ، وأثنى عليهم ، وأن ابن مخلوف كان يقول : ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، سعينا في دمه . فلما قدر علينا عفا عنا .

واجتمع بالسلطان مرة ثانية بعد أشهر ، وسكن الشيخ بالقاهرة ، والناس يترددون إليه ، والأمراء والجند ، وطائفة من الفقهاء ، ومنهم من يعتذر اليه ويتنصل مما وقع .

---

(١) قلت هذا الذي اتهموه به هو عين عقيدة السلف التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم وقد اشار الرسول الى الله وأنه في السماء غير مرة .

قال الذهبي : وفي شعبان سنة إحدى عشرة : وصل النبأ : أن الفقيه البكري ـ أحد المبغضين للشيخ ـ استفرد بالشيخ بمصر ، ووثب عليه، ونتش بأطواقه ، وقال: احضر معي إلى الشرع ، فلي عليك دعوى ، فلما تكاثر الناس انملص ، فطلب من جهة الدولة ، فهرب واختفى .

وذكره غيره : أنه ثار بسبب ذلك فتنة ، وأراد جماعة الانتصار من البكري فلم يمكنهم الشيخ من ذلك .

واتفق بعد مدة : أن البكري همّ السلطان بقتله ، ثم رسم بقطع لسانه [1]، لكثرة فضوله وجراءته ، ثم شفع فيه ، فنفى إلى الصعيد ، ومنع من الفتوى بالكلام في العلم . وكان الشيخ في هذه المدة يقرىء العلم ، ويجلس الناس في مجالس عامة .

قدم إلى الشام هو وإخوانه سنة اثنتي عشرة بنية الجهاد ، لما قدم السلطان لكشف التتر عن الشام . فخرج مع الجيش ، وفارقهم من عسقلان ، وزار البيت المقدس .

ثم دخل دمشق بعد غيبته عنها فوق سبع سنين ، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه ، وخرج خلق كثير لتلقيه ، وسر الناس بقدمه ، واستمر على ما كان عليه أولا ، من اقراء العلم ، وتدريسه بمدرسة السكرية ، والحنبلية ، وافتاء الناس ونفعهم .

ثم في سنة ثمان عشرة : ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير[2] ، وعقد له مجلس بدار السعادة ، ومنع من ذلك ، ونودى به في البلد .

ثم في سنة تسع عشرة عقد له مجلس أيضا كالمجلس الأول ، وقرىء كتاب السلطان بمنعه من على تأكيد المنع .

ثم بعد مدة عقد له مجلس ثالث بسبب ذلك ، وعوتب وحبس بالقلعة . ثم حبس لأجل ذلك مرة أخرى . ومنع بسببه من الفتيا مطلقا ، فاقام مدة يفتي بلسانه ، ويقول : لا يسعني كتم العلم .[3]

(١) أي أمر بقطع لسانه فانظر كيف رد الله كيد البكري في نحره .

(٢) أى من حلف بالطلاق لا يلزمه وإنما يكفر كفارة يمين .

(٣) وقد عاد الناس اليوم بحمد الله الى فتوى ابن تيمية هذه التي سجن فيها واوذى مرارا .

وفي آخر الأمر : دبروا عليه الحيلة في مسألة المنع من السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين ، وألزموه من ذلك التنقص بالأنبياء ، وذلك كفر ، وأفتى بذلك طائفة من أهل الأهواء ، وهم ثمانية عشر نفسا ، رأسهم القاضي الإخناني المالكي وأفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه ، فحبس بقلعة دمشق سنتين وأشهراً . وبها مات رحمه الله تعالى .

وقد بين رحمه الله : أن ما حكم عليه به باطل بإجماع المسلمين من وجوه كثيرة جداً ، وأفتى جماعة بأنه يخطيء في ذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم ، ووافقه جماعة من علماء بغداد ، وغيرهم . وكذلك ابنا أبي الوليد شيخ المالكية بدمشق أفتيا : أنه لا وجه للاعتراض عليه فيما قاله أصلا ، وأنه نقل خلاف العلماء في المسألة ، ورجح أحد القولين فيها .

وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه ، ويرسل إلى أصحابه الرسائل ، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة ، والأحوال الجسيمة .

وقال : قد فتح الله على في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء ، كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن ، ثم إنه منع من الكتابة ، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق ، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر .

قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم : سمعت شيخنا شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . قال : وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي ، لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة . وقتلي شهادة ، واخراجي من بلدي سياحة .

وكان في حبسه في القلعة يقول : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة ـ أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا الي فيه من الخير ـ ونحو هذا .

وكان يقـول في سجـوده ، وهـو محبــوس : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، ما شاء الله .

وقال مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمـأسور من أسره هواه ولما دخل إلى القلعة ، وصار داخل سورها نظر إليه ، وقـال(٥٧ : ١٣ فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب) .

قال شيخنا : وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قـط ، مع مـا كان فيـه من الحبس والتهـديـد والإرجـاف ، وهو مع ذلـك أطيب النـاس عيشـا ، وأشرحهم صـدرا ، وأقواهم قلبـا ، وأسرهم نفسـا ، تلـوح نضرة النعيم على وجهـه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضـاقت بنـا الأرض : أتينـاه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب عنا ذلك كلـه ، وينقلب انشراحـا وقوة ويقينا وطمأنينة . فسبحان من أشهد عباده جنتـه قبل لقـائـه ، وفتح لهم أبوابهـا في دار العمـل ، فـأتـاهم من روحهـا ونسيمهـا وطيبهـا مـا استفرغ قـواهم لطلبها ، والمسابقة إليها ا هـ .[1]

ابن تيمية والعفو عند المقدرة :

وقد يظن ظان ان ابن تيمية وقد ابتلى بهذه الابتلاءات جميعا فكر يوما مـا أن ينال من مسلم آذاه أو وشى بـه حـاشـا وكلا لقـد كان دائمـا ذا نفس أبيـة لم ينتقم يوماً لنفسه مع قدرته ممن آذاه وألب عليه .

● حدث ابن عبد الهادي عن شيخ الاسلام ان سلطان مصر الناصر ابن قلاوون استقدم الشيخ عنده ورحب به ثم أخرج له من جيبه فتاوي لبعض علمـاء مصر للـذين أفتوا بقتل ابن تيميـة ، واستفتى السلطـان ابن تيميـة في أن يقتل بعضهم ممّن زد رواعه زوروا على ابن تيميـة وافتـوا في قتلـه . قــال الشيـخ ابن تيميــة «ففهمتَ مقصود السلطـان ابن قـلاوون وعلمت أن عنـده حنقـاً شـديـداً عليهم لأنهم كانوا قـد خلعوه وبـايعوا ركن الـدين بيبرس الجـاشنكير يقـول ابن تيميـة فشرعت في مــدح هـؤلاء العلمــاء وشكرهم ، وأنهم لـو ذهبـوا لم تجـد مثلهم في دولتك ، وأما أنا فهم في حلٍ من حقي ومن جهتي».

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ص ٣٩٦ الى ٤٠٣ نشر دار المعرفة .

قال ابن تيمية فكان القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك : ما رأينا انقى من ابن تيمية لم نبق ممكنـا في السعي لقتلـه الا وفعلنـاه ، ولما قدر هو علينا عفى عنا» ا هـ . [1]

---

(١) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ٢٨١ ـ ٢٨٣

الباب الخامس

ابن تيمية وشهادات العلماء المعاصرين

كتب علماء معاصرون كثيرون لا أستطيع أن أحصيهم في هذه الرسالة الموجزة السريعة وكلهم أطبقوا كما ذكرت في أول الرسالة أن العالم في القرن الثامن كان ينتظر خروج هذا الرجل لحاجة الأمة الى تجديد الدين ، وازالة الركام الذي القاه الظالمون والمنتحلون .. وكان هذا الذي ذكره العلماء المحدثون هو أيضا ما أطبق عليه العلماء الذين عاصروا ابن تيمية وعايشوه . ولكن المعاصرين الآن من أهل الدين والفهم وممن له اشتغال بالدعوة والجهاد والعلم يرون أنه ما اشبه اليوم بالبارحة ، وانه ما احوج العالم اليوم الى ابن تيمية ليجدد لهذه الأمة شبابها ، ويعلي للتوحيد مناره ، وللاسلام الحق ركنه وفخاره .

وأقول الحمد لله نحن اليوم نعيش عصر ابن تيمية فرجال الدعوة المخلصون ، وشباب الأمة العاملون ملهمهم وامامهم وقدوتهم هو ابن تيمية ، ومرجعهم هو كتبه ومؤلفاته ، وأقواله ونظرياته .

وان التجديد الحادث اليوم لدين الأمة هو بفضل الله أولا ثم بفضل الذين تتلمذوا على كتب هذا الامام الجليل ، وتضلعوا من علمه الغزير وغاصوا في بحره الواسع وهآنذا أذكر طائفة من شهادات بعض العلماء المعاصرين .

● حاجة الأمة الى ابن تيمية :

شهادة الشيخ أبي الحسن الندوي

كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتابا مطولا عن ابن تيمية يقع في نحو ثلاثمائة وخمسين صفحة وكان منه هذه المقدمة الرائعة التي يصف فيها حاجة المسلمين في القرن الثامن الى ظهور هذا الامام الذي كان لا بد من ظهوره لاعادة استثارة العالم من جديد بعد أن غطاه الظلام .

كتب حفظه الله يقول :

« ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين ، وكان ذلك أمراً لازماً ، غير أنه تأثر بالفلسفة وتسربت اليه روحها حتى تكونت «فلسفة دينية» تنتهج نفس المنهج ، وتبحث نفس الموضوع وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال ، وتعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أموراً عقلية يمكن اثباتها عن طريق العقل ، وكذلك تسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شرح وتعبير في هذا الموضوع واستخدم مصطلحات يونانية تقوم على علم محدود ناقص وتثير شبهات ، الأمر الذي دعا الى تعقد القضايا وتوسعها بل أن تنحل أو تختصر ، ووجدت «فلسفة الهية» وكتب ضخمة في شرح العقائد إزاء اسلوب مقنع مؤثر كان جديرا بشحن النفوس بالايمان والاذعان ، واقناع العقول في كل زمان، وكان مؤسساً على نصوص الكتاب والسنة .

وكانت هذه الفلسفة الالهية الجديدة قد تأثرت بالفكر اليوناني رغم انها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية ، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائما على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجيهة للأمة الاسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتأويل الكلامية ، غير أن الحاجة الى عالم كبير نافذ البصيرة ، واسع العلم ، قوي الايمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوي المؤثر عنهما ، ذلك الذي يعتقد أجزم الاعتقاد أن في نصوص الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفي تعبيراتها عنها غنى وكفاية تامة ، ذلك العالم الذي يتوصل

بذكائه ودراسته الى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها ، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي ، بما عنده من علم بموضع ضعفها الأساسية ، ذلك الذي قد تعمق بتفكيره فوصل الى أغوار علم الكلام واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الاسلامية ولا يخفى عليه شيء من تاريخ علم الكلام ونموه ، ذلك الرجل الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل

دراسته وتجاربه ، يفيض عزماً وحماساً بنصرته وشرحه ، ويعيش على حسك السعدان لكي يثبت رجحان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية ، كما يكون متمتعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتصلبها هذا العمل العظيم ومتميزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله وسعة نظره وعمق دراسته عن غيره ، يكون فوق مستوى عصره وكفوا للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة .

في مواجهة المسيحية ، ونقدها العلمي :

هذا وقد كان الاسلام هدفا للهجمات الداخلية والخارجية بجانب آخر ، وكان المسيحيون قد تحمسوا لاثبات أن المسيحية هي الدين الحق ، وتوجيه الايرادات إلى الإسلام ، ان الهجوم الصليبي المتتابع ووجود عدد وجيه من مسيحيي الغرب في الشام وقبرص شجعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي وعلى تأليف كتب تثبت فضل دينهم وأخرى ترفض نبوة محمد ﷺ .

وللرد على كل ذلك كانت الحاجة ملحة إلى عالم كبير ومتكلم ، له دراسة عميقة في المسيحية والديانات الأخرى وله اطلاع واسع على الصحف السماوية وما واجهته من تغيير وتحريف ويستطيع أن يحسن المقارنة بين الديانات ويثبت فضل الإسلام وخلوده في أسلوب علمي مؤثر قوي ، ويتمكن من دعوة أتباع الديانات الأخرى ألى الإسلام بحكمة وقوة .

فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة :

وقد كان أشد وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملة شنها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام وهي الفرقة الباطنية التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية والأفكار الافلاطونية والأغراض السياسية ، وقد كانت هذه الفرقة وفروعها المختلفة من الاسماعيلية والحشاشية والدروزية والنصيرية تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام ، وهي التي مهدت الطريق ودبرت المؤامرات للهجوم على الأطار الإسلامية وساعدت الصليبيين في شن هجومهم على الشام وذلك ما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أن قربوا رجال الفرقة الباطنية وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم وأحسنوا اليهم ، اعترافاً بمساعداتهم المخلصة ، وقد ظل هؤلاء الباطنيون مشتغلين بتبييت المؤامرات وتدبير الثورات في عهدي صلاح الدين ونور الدين فلما قصد وحوش التتر أرض الشام بهجماتهم العنيفة ساعدهم الباطنيون علناً وجهاراً ، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ ، وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيغ وثورة على الدين وكانوا «كالطابور الخامس» في حصن المسلمين الديني .

كل ذلك كان يحتم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية ، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطلع المسلمون على نواياها ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا من له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارها وتاريخها ، وله معرفة بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرد والنقد ، مضافاً إلى ذلك حماسه الزائد للإسلام ودافعه القوي للجهاد مع أعداء الإسلام .

محاربة العقائد ، والأعمال الشركية ، والدعوة الى الدين الخالص :

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة وأعمال الشرك بضغط

عوامل عديدة منها اختلاطهم بغير المسلمين ، وتأثير العجم ، وتهاون العلماء ، وقد أصبح الدين الخالص والتوحد النقي وراء حجاب وحجاب ، ونشأ الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى ، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ ، وينطبق عليهم ما حكاة القرآن من قول مشركي العرب الأولين «ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى» وتنتشر هذه الفكرة الجاهلية في أوساط المسلمين وأصبح كثير من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغير الله والاستعانة به ، واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد وتحقق الخطر الذي كان قد أنذر به النبي ﷺ وشدد النهي عنه ، ولم يكن المسلمون يشعرون بأي غضاضة في التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم .

فكانت الحاجة ماسة إلى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشتركة والدعوة الى التوحيد الخالص بكل قوة وايضاح ويكون عارفا بالفرق بين التوحيد والشرك معرفة دقيقة ، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر ، ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء ، وتقاليد الزمان وعادات الناس ، ولا يبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف في ذلك لومة لائم ، ويكون ذا نظر دقيق وعلم واسع بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها ، وبأحوال القرن الأولى ، وذا اطلاع كامل على تاريخ اليهود والنصارى وقصة انحرافهم ومسخهم وتحريفهم ، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسيتهم ، ويعيش في تأمل وقلق لكي يعيد المسلمين الى تعاليم القرآن وعقيدة الصدر الأول ويراهم منتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأتباعهم .

محاربة الانحرافات والمغالطات في الطوائف الدينية وتنقية الدين من الشوائب :

وقد تسرب الى متصوفين ـ لأسباب تاريخية وعلمية عديدة ـ تأثير الفلسفة

الاشراقية التي جاءت من يونان والهند ، وامتزجت بالعقائد الاسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنى لكل واحد فصلها عنها ، ان اشراقية الافلاطونية الجديدة أو تنسك الهنود ، وعقيدة الحلول والاتحاد ، ومذهب وحدة الوجود ، وتقسيم الظاهر والباطن ، وفتنة الرموز والأسرار ، والعلم الدفين ، وسقوط التكاليف الشرعية عن «الكاملين» و «الواصلين» واستثناؤهم عن الأحكام الشرعية كل ذلك كانت معتقدات وأفكاراً نالت اعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين ، وبالرغم من انكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة كانت طبقة من المتصوفين تلح عليها ، حتى تسفل بعض فروع التصوف وسلاسله الى حد الشعوذة والتهويل ، ولا سيا بعض فروع السلسلة الرفاعية التي انحرفت في العهد الأخير[1] عن أصلها وتعاليم مؤسسها الكبير وآثر كثير من رجالها الذين لم ترسخ قدمهم في العلوم الشرعية والعقائد الاسلامية الأعمال البهلوانية ، زاعمين أنها تؤثر في عقول المغول والتتار وترغبهم في الاسلام ، وكان لذلك ضرر عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة ، وقد استفحلت هذه الفتنة في القرنين السابع والثامن ، ووقع العامة وكثير من الخاصة فريسة هذه المغالطات .

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضا والحفاظ على الشريعة كانت الحاجة شديدة الى مؤمن قوي ، ومصلح جريء يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللاذع ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حرية وجراءة ، معرضاً عن صولتها وقوتها ، وغير مبال بعدد أتباعها ونفوذهم .

تجديد الفكر الاسلامي :

وكانت الحلقات العلمية والتدريسية مصابة بجمود شديد ، فكل طائفة تعتبر الخروج عن دائرتها الفقهية قيد شعرة جريمة لا تغتفر ، وكان مألوفاً لدى كل طائفة أن ترى الى الكتاب والسنة بمنظار مذهبها الفقهي ، وتحاول تطبيق الكتاب والسنة في الخلافات الفقهية على آرائها في كل حال فضلاً عن تحكيمها

---

(١) للأسف أن بعض المعاصرين من الرفاعية ما زالوا يفتخرون بمثل هذه الأعمال الشيطانية !

فيها ، وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهية مغلقاً عملياً ، وكانت مشكلات حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغير الزمان والأحوال ، الأمر الذي كان يحتاج الى ارشاد المسلمين فيها والبحث عن حلولها الى رجل يجمع بين سعة النظر في ذخائر الفقه الاسلامي ، والتعمق في الكتاب والسنة والاطلاع على تعامل القرون الأولى ، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه ، وقد كان يتضايق مجال العلم والنظر والدراسة على مر الزمان وتضمحل القوى الفكرية ، ولم يكن عالم من علماء الاسلام يتجرأ على استنباط الأحكام الجديدة وكان الفقه الاسلامي قد فقد جدارة النمو والتقدم ، ويعتبر من المستحيل أن يزداد الى ثروة الفقه القديمة أي زيادة .

فكان اصلاح هذا الوضع كذلك يحتاج الى محدث فقيه وأصولي ضليع يكون قد استعرض ذخائر المكتبة الاسلامية بأسرها ويستحضر الكتاب والسنة بحيث يحير الناس ، ويعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس الى الاعتراف بمكانته في صناعة الحديث ، حتى يقولوا : «ان الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجل ليس حديثاً »[1] ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم في كل حين ، كما يكون له اطلاع تام على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين اليها من أهل المذهب ، ولا يتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه ، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقهم ومتطفلاً على موائد علمهم ودينهم ، ويكون ذا قدم راسخة في علوم اللغة وباع طويل فيها حتى تأهل لذلك للنقد والصيرفة في مجالها ، يجمع الى ذلك علو الكعب ودقة النظر في النحو حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءهم الفنية ، ويجدد بقوة عارضته عهد المحدثين الأولين ، يعتبر ذكاؤه آية من آيات الله وعلمه دليلاً على فضل الله ، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الاسلامية وغضارة دوحة الاسلام ، ونضارة العلوم الاسلامية ونموها وازدهارها ، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبي ﷺ من قولته الخالدة . « مثل أمتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره »[2].

---

١ ـ من الأقوال التي قالها كبار علماء العصر في شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتي . قلت قاله تلميذه الذهبي .

٢ ـ رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

جامع بين العلم والعمل ، والسيف والقلم :

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح ، ويجمع بين القلم والسيف ، جريئاً على الملوك في الصدع بالحق ، لا يحجم عن قيادة الجيش الاسلامي أمام أضرى عدد ومثل الوحوش التتر ، ويعرفه كل من حلق الدرس ، وزوايا المكتبات ، وخلوات المساجد ، ومجالس المناظرة ، ومعتقلات السجون ، وساحات الحرب كفارس عظيم ورجل ذي شكيمة ، مبجلاً في كل عين ومعترفاً بامامته في كل طبقة .

كان القرن الثامن بحاجة الى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة أو تتركز على جانب واحد ، كان ذلك الرجل هو شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الاسلامي بنشاط وحياة تحركات علمية وعملية لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال .

٢ ـ شهادة الشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله : ـ

وكتب الشيخ محمد ابي زهرة ترجمة مستفيضة لشيخ الاسلام ابن تيمية ، وفي مقدمتها يبين الباعث له على هذه الترجمة فيقول :ـ

أ ـ الفقيه الذي اتصل بالحياة وتعلق قلبه بالكتاب والسنة :

برز الى الخاطر إمام شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه ، فدوى صوته بآرائه في مجتمعه ، فتقبلتها عقول واستساغتها ، وضاقت عنها أخرى وردتها ، وانبرى لمنازلته المخالفون ، وشد أزره الموافقون ، وهو في الجمعين يصول ويجول ، ويجادل ويناضل ، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر عليهم الإعجاب بشخصه وبيانه ، وقوة جنانه وحدة لسانه ، واعترتهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجدد بها أمر هذه الأمة ، ويعيد اليها دينها غضاً قشيباً كما ابتدأ .

ذلكم الإمام الجريء هو تقي الدين بن تيمية صاحب المواقف المشهودة ، والرسائل المنضودة ، اتجهت لدراسته مستعيناً بالله سبحانه ، لأن دراسته دراسة لجيل ، وتعرف لقبس من النور أضاء في دياجير الظلام ، ولأن آراءه في الفقه والعقائد تعتنقها الآن طائفة من الأمة الإسلامية تأخذ بالشريعة في كل أحكامها وقوانينها ، ولأننا نحن المصريين في قوانين الزواج والوصية والوقف قد نهلنا من آرائه ، فكثير مما اشتمل عليه القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ مأخوذ من آرائه ، مقتبس من اختياراته ، وشروط الواقفين والوصايا اقتبست أحكامها في قانوني الوقف والوصية من أقواله .

ثم إن دراسة ذلك الإمام الجليل تعطينا صورة للفقيه قد اتصل بالحياة ، وتعلق قلبه وعقله وفكره بالكتاب والسنة والهدي النبوي ، والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فهو يأتي بفكر سلفي آخذ بأحكام القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، يعالج به مشاكل الحياة الواقعة بالقسطاس المستقيم ، بل يلقى في حقل الحياة العاملة الكادحة المتوثبة بالبذرة الصالحة التي استنبطها من الكتاب والسنة فتنبت الزرع ، وتخرج الثمر ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

وإنا وقد اتجهنا إلى دراسة ذلك العالم الكاتب الخطيب المجاهد الذي حمل السيف والسنان ، كما حمل القلم والبيان ، سنجتهد في دراسة حياته ، ومجاوبتها لروح عصره ، وتأثيرها فيه ، ثم ندرس آراءه كعالم من علماء الكلام وآراءه كفقيه ، واجتهاده والأصول التي تقيد بها ، ومقدار الصلة التي تربطه بالفقه الحنبلي .

وإنا نستعين بالله ، ونسأله التوفيق ، فإنه لولا توفيقه ما تيسر لنا أمر ، ولا وصلنا إلى غاية ، إنه نعم المولى ونعم النصير .ا هـ

(ب) لماذا درس ابن تيمية الفلسفة ؟

ويشيد أبو زهرة بردود ابن تيمية على الفلاسفة ، ويبين لماذا درس الفلسفة

---

(١) ابن تيمية لابي زهرة ص ٣ ، ٤

ويعقد فصلا يقارن فيه بين دراسة ابن تيمية للفلسفة ودراسة الغزالي لها فيقول :-

درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها ، ولكنه درسها ليهدمها، وهو قد رآها داء قد أصاب فكر المسلمين ، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين ، وأنها سرت إلى العقل الإسلامي فسيطرت على مساربه ، ويروي أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الإسلامية وموافقتها لصريح المعقول لا بد من ابعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة وأوهام ، كما يبعد عن الجسم الإنساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته ، فيقول في ذلك :

« لما كان بيان مراد الرسول في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله . وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، إذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه ، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، إلا مع بيان فساد ذلك المعارض ، وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلا [1] ».

الفرق بينه وبين الغزالي :

درس إذن ابن تيمية الفلسفة وما عند الفلاسفة ، لا ليطلب الحقائق منْ ورائها ، بل ليبين بطلان ما يعارض الدين منها ، فهو آمن بما جاء به الرسول أولا ، ثم أراد أن ينفي عنه خبث الفلسفة ،

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول المطبوع على هامش منهاج السنة ص ٩ جـ ١

فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته ثم ليبين بطلانه بعد معرفته .

وهو في هذا يفترق عن منهاج الغزالي رضي الله عنه ، فهو قد درس الفلسفة ليطلب الحقيقة من ورائها ، وخلص نفسه من كل شيء ليصل إلى الحق المستقيم ، واعتبر الشك هو الطريق للوصول إلى الحق ، ولكن تبين له بطلان ما يقوله الفلاسفة ، فعاد إلى الدين ، وأشرق في نفسه نور الحقائق في خلوات صوفية عرف فيها نفسه ، ثم حمل حملته على الفلاسفة وبين تهافتهم .

ومع ذلك هل تجرد منها ؟ إنه بقيت في نفسه أثارة منها ، بل إنه لم يتركها إلا وقد تكون عقله تكوناً فلسفياً ، وأخذ أحد شعب الفلسفة وجعله جزءاً من دراساته ، وهو المنطق ، فهو في مقدمة كتاب المستصفى في عالم الأصول ، والذي يعد أحد دعائم على أصول الفقه الثلاثة[1] يقرر أن الحقائق لا يمكن أن تعرف في أي علم من العلوم على وجهها إلا إذا كان المنطق ميزانها ، ويقول في مقدمة كتاب المستصفى التي شرح بها علم المنطق إجمالا ما نصه :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقي، وشرط البرهان الحقيقي ، وأقسامها على منهاج أو جزء مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلا [2]».

وهذا إيمان بشعبة من شعب الفلسفة عميق ، فإن علم المنطق فرع من فروعها ، بل لعله أعظم تراث تركه أرسطو من بعده .

هذا هو الفرق بين المقصد عند هذين العالمين من دراسة الفلسفة ،

---

(١) الكتب الثلاثة هي : المعتمد لأبي الحسين البصري ، والبرهان لإمام الحرمين . والمستصفي للغزالي .

(٢) مقدمة المستصفى ص ١٠ الجزء الأول

وقد تأدى بالأول إلى نقضها، وتأدى بالثاني إلى اعتناق بعضها ، لذا قال بعض تلاميذ الغزالي : إنه دخل في بطن الفلسفة ، ولما أراد الخروج منها لم يستطيع . فكانت منه تلك المناهج الفلسفية التي سلكها في دراسة العقائد ، ودراسة أصول الفقه ، بل كان منه تلك الحيرة التي بدت في آرائه في الفلسفة والفلاسفة ، فبينما تراه يحمل على الفلاسفة ، ويبين تهافتهم ، تراه يقبض قبضة من علومهم ويجعلها وحدها ميزان العلوم ، ولذا قال ابن تيمية فيه :

« كان أبو حامد ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من أشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت توافق أصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ، بل المخالفة لصريح العقل ، حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب [1]».

ويقول فيه أيضاً :

« وأبو حامد لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولون ، بل يكفرهم ويضللهم في موضع ، وإن كان في الكتب المضافة إليه ما قد يوافق بعض أصولهم ، بل في الكتب التي يقال إنها مضنونة بها على غير أهلها ما هو في الفلسفة مضنونة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان قد عبر عنها بعبارات إسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول إنها مكذوبة على أبي حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها ، ولا ريب أنه صرح في بعض المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال ، وغيره في كتبه بما في هذه من الضلال [2]».

ثم بين أن الغزالي كان ينقل كتب الفلسفة ، وأقوال الفلاسفة ، وينقل عن

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ١١٥

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٩

أبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم فيقول :

« قال (ابن المازرى) ووجدت هذا الغزالي يعول على ابن سينا في أكثر ما يشير إليه في علوم الفلسفة ، حتى إنه في بعض الأحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير ، وأحياناً يغيره ، وينقله إلى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم بأسرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل إخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة [1] ».

نقده للفلاسفة :

من هذا يتبين كيف غمر الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطيع الخروج منها ، لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نيته في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في أقطارها ، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي ، ففلسف الشريعة ، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر .

أما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها ، فكان يقرؤها ويفهمها ، وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها ، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، وأخذ يتبع هفواته ويتقصى هناته .

ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك أصول العقيدة ، وفروع الفقه والأحكام العلمية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ، ولا طريق سواه ، ويرى أن أولئك الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ، ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحة ليوافقها ، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة ، ويقول في ذلك :

« يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الأعراض على

(١) الكتاب المذكور ص ١١٧

حدوث الأجسام ، وهو دليل مبتدع في الشرع » [1] .

ينقد ابن تيمية هؤلاء ، لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها ، ثم يحكمون على الأوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها ، ويوجهونها بتوجيهها ، فما يوافقها أقفروه كما ورد ، وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، وأولوه بتأويلها ، ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا إلى السنة ، ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب ، مبينة لكل ما جاء فيه ، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره .

نقد ابن تيمية ذلك المسلك ، لأنه يجعل الحاكم محكوماً ، فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة .

● شهادة الشيخ أبو بكر الجزائري - رئيس قسم التفسير بالجامعة الاسلامية : -

الشيخ الداعية : -

« تصدى ابن تيمية لمحاربة الفساد المستشري في أمة الإسلام والمتمثل في الحكام والعلماء والعباد من المتصوفة والمبتدعة والخرافيين ، فقاومه بالحجة والبرهان وانبرى لمقاومته الحكام بالوعيد والتهديد ، والسجن والحرمان ، وتصدى له العلماء ، بالإنكار والتشنيع والوشايات لدى الحكام وتصدى له المتصوفة والمبتدعة بالكيد والمكر والدس والخداع والكذب والتضليل .

ووقف الشيخ وحده في الميدان ليس له من ولي ولا نصير إلا ربه تعالى وكفى بالله ولياً ونصيراً . وكان ما أجمع عليه اعداؤه فيه ثلاث مسائل ادعوا أنه خالف فيها الاجماع وهي طلاق الثلاث ، والوسيلة ، وشد الرحال الى غير المساجد الثلاثة . هذه ابرز ما اجتمع عليه أعداء الشيخ فحاربوه عليها حرباً

---

(١) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي .

ضروساً بلا رحمة ولا شفقة ، فما تركوا وسيلة للنيل من الشيخ إلا استعملوها ، فكذبوا عليه ، وزوروا وافتروا . وقالوا ما لم يقله عدو في عدوه والشيخ صابر محتسب يقرع الحجة بالحجة ، ويبين زيف الدعاوي ، وافتراء المفترين ، كل ذلك بأسلوب نزيه ، وكلام طيب ، وقول حسن فلا يغلظ في قول ، ولا يجفو في عبارة ، ولا يحاول انتقاص أحد ، أو النيل من كرامته إن كان من ذوي الكرامات . الأمر الذي يعد فيه ابن تيمية فريدا وحيدا أشبه رجل بنبي في دنيا الرجال .» [١]

● شهادة الشيخ محمد سليمان العبدة المدرس بالجامعة الاسلامية

إن هذا العالم ـ وبتقديري الخاص ـ لم يقدر التقدير الكافي أو يفهم الفهم المطلوب حتى الآن . رغم ما بذل من جهود مشكورة في نشر كتبه أو الحديث عنه .

إن علم ابن تيمية من خلال كتبه كان المصدر الرئيسي لأكثر الحركات الإسلامية المعاصرة ، وكما يقول مالك بن نبي : (إن تراث ابن تيمية يكون الترسانة الفكرية التي لا زالت تمد الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم) .

وإن ما نعانيه اليوم ليس نقصاً في الكتب بل نقصاً في الرجال وابن تيمية هو من الرجال القلائل الذين ظهرت فيهم سيرة السلف بجمعهم بين العلم والجهاد ، ومن اليوم الذي انفصل فيه هذا الشعور عند المسلمين تأخروا وأصبح العلماء بعيدين عن الحياة وعن القيادة والريادة . ا هـ [٢]

---

(١) مجلة الجامعة الاسلامية ص ١٦٩

(٢) من مجلة الجامعة الاسلامية ص ٢٧٧

الباب السادس

ابن تيمية : ألوان من جهاده

قدمنا ان ابن تيمية جاهد في كل ميدان تقريباً بالقلم والكلمة والسيف ، ولا نستطيع أن نأتي في هذا المختصر على شيء كثير من جهاده وانما نذكرها هنا لونا فريداً من الوان جهاده وهو جهاده بالرسائل الى تلاميذه والى بعض الامراء والحكام .. ولا نستطيع أيضا أن نذكر هنا كل مخاطباته ورسائله في هذا الصدد وانما نذكر الواناً من ذلك فقط .

جهاده للنصيريين
وفضحه لعقائد الباطنيين

● رسالة الشيخ ابن تيمية الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يبين فيها مشروعية حربه للباطنيين من النصرية واضرابهم ممن كانوا بجبال سوريا ولبنان .

خاض الامام شيخ الاسلام ابن تيمية حروباً كثيرة بعضها في مقابل التتر

المتسترين بالاسلام وبعضها ضد النصرية والباطنية الكفرة المعادين لأهل الاسلام والموالين لأعدائه من التتر والصليبيين ، وبعد واقعة جبل كسروان (بلبنان) سنة ٧٠٤ هـ التي هزم فيها هؤلاء المارقون كتب ابن تيمية كتابا الى السلطان المذكور يذكر فيه ما انعم الله سبحانه وتعالى به على الاسلام وأهله .

في هذه الغزوة كتب ابن تيمية يقول : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من الداعي أحمد بن تيمية الى سلطان المسلمين ، ومن أيد الله في دولته الدين ، وأعز بها عباده المؤمنين ، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين ، نصره الله ونصر به الاسلام ، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام ، وأحي به معالم الايمان ، وأقام به شرائع القرآن ، وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فانّا نحمَدَ إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير . ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين ، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

أما بعد . فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . وأنعم الله على السلطان ، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية . وجدد الاسلام في أيامه تجديدا بانت فضيلته على الدول الماضية . وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق ، أفضل الأولين والآخرين ، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين والله تعالى يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين ، ويتمها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين .

وذلك : أن السلطان ـ أتم الله نعمته ـ حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته ، وصحة إسلامه وعقيدته ، وبركة إيمانه ومعرفته ، وفضل همته ، وشجاعته ، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته ،

ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين : من جهاد أعداء الله المارقين من الدين ، وهم صنفان :

أهل الفجور والطغيان ، وذوو الغى والعدوان ، الخارجون عن شرائع الايمان ، طلبا للعلو في الأرض والفساد ، وتركا لسبيل الهدى والرشاد . وهؤلاء هم التتار ، ونحوهم من كل خارج عن شرائع الاسلام وان تمسك بالشهادتين، أو ببعض سياسة الاسلام .

والصنف الثاني : أهل البدع المارقون ، وذوو الضلال المنافقون ، الخارجون عن السنة والجماعة ، المفارقون للشرعة والطاعة . مثل هؤلاء الذين غُزُوا بأمر السلطان من أهل الجبل ، والجرد ، والكسروان . فان ما منَّ الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام ، هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الاسلام .

وذلك : أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين فان اعتقادهم : أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وأهل بدر ، وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم باحسان ، وأئمة الاسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ، ومشايخ الاسلام وعبادهم ، وملوك المسلمين وأجنادهم ، وعوام المسلمين وأفرادهم . كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون ، أكفر من اليهود والنصارى . لأنهم مرتدون عندهم والمرتد شر من الكافر الأصلي . ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والايمان .

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد ، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد ، وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملو إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم مالا يحصى عدده إلا الله ، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوما يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص ، وفرحوا بمجيء التتار ، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون ، مثل أهل جزين[١] . وما حواليها . وجبل عامل ونواحيه .

ولما خرجت العساكر الاسلامية من الديار المصرية ، ظهر فيهم[٢] من الخزي

---

(١) مدينة معروفة بالبقاع بلبنان .

(٢) أي في النصيرية وأهل الجبل المارقين .

والنكال ما عرفه الناس منهم . ولما نصر الله الاسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان[1] ، كان بينهم شبيه بالعزاء .

كل هذا ، وأعظم منه ، عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكسخان إلى بلاد الاسلام ، وفي استيلاء هولاكو على بغداد ، وفي قدومه إلى حلب ، وفي نهب الصالحية ، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله .

لان عندهم أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد .ومن استحل الفُقَّاع [2]فهو كافر . ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر . ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر . ومن أحب أبا بكر أو عمر ، أو عثمان ، أو ترضي عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر . ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر .

وهذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث ، أو خمس . يزعمون أنه دخل السرداب بسامرا من أكثر من أربعمائة سنة . وهو يعلم كل شيء . وهو حجة الله على أهل الأرض . فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر . وهو شيء لا حقيقة له ، ولم يكن هذا في الوجود قط .

وعندهم من قال : إن الله يرى في الآخرة فهو كافر . ومن قال : إن الله تكلم بالقرآن حقيقة فهو كافر . ومن قال : إن الله فوق السموات فهو كافر ومن آمن بالقضاء والقدر وقال : إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وأن الله يقلب قلوب عباده ، وأن الله خالق كل شيء ، فهو عندهم كافر . وعندهم أن من آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله ، فهو عندهم كافر .

هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم . مثل بنى العود . فانهم شيوخ أهل هذا الجبل . وهم الذين كانوا يأمرونهم بقتال المسلمين . ويفتونهم بهذه الأمور .

وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود وغيره . وفيها هذا وأعظم منه . وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علموهم وأمروهم لكنهم مع

---

(١) هو السلطان الناصر بن قلادون سلطان مصر والشام .

(٢) شراب يصنع من الشعير وسمي كذلك لما يعلوه من الزبد . لسان العرب . (١) الرشاوي.

هذا يظهرون التقية والنفاق . ويتقربون ببـذل الأموال الى من يقبلها منهم . وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية . فانما أقاموا بجبلهم لما كانوا يظهرونه من النفاق ، ويبذلونه من البرطيل[1] لمن يقصدهم .

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة . ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثله . ولهذا كثر فسادهم . فقتلوا من النفوس ، وأخذوا من الأموال ، ما لا يعلمه إلا الله .

ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يضبط شره ، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة ، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد . كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات ، ويرد اليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين . فإما أن يقتلوه أو يسلبوه . وقليل منهم من يفلت منهم بالحيلة .

فأعان الله ويسر ، بحسن نية السلطان وهمته ، في اقامة شرائع الاسلام ، وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية ، كما أمر الله ورسوله ، بعد أن كشفت أحوالهم ، وأزيحت عللهم ، وأزيلت شبههم ، وبذل لهم من العدل والانصاف ما لم يكونوا يطمعون به ، وبين لهم أن غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية[1] .

المارقين ، الذين تواتر عن النبي ﷺ الأمر بقتالهم ونعت حالهم ، من وجوه متعددة . أخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه : من حديث علي بن ابي طالب ، وأبي سعيد الخدري . وسهل بن حنيف ، وأبي ذر الغفاري . ورافع بن عمرو ، وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ .

قال فيهم . « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية . لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ . لو يعلم الذين

---

(١) الحرورية : هم الخوارج الذي خرجوا على علي بن أبي طالب وسمو كذلك لأن اول خروجهم كان ببلدة تسمى حروراء .

يقاتلونهم ماذالهم على لسان محمد ﷺ لاتكلوا عن العمل . يقتلون أهل الاسلام . ويدعون أهل الأوثان . يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، شر قتلى تحت أديم السماء . خير قتلى من قتلوه» .

وأول ما خرج هؤلاء ، زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . وكان لهم من الصلاة ، والصيام ، والقراءة ، والعبادة ، والزهادة ما لم يكن لعموم الصحابة . لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله ﷺ ، وعن جماعة المسلمين . وقتلوا من المسلمين رجلا اسمه عبد الله بن خباب [1] وأغاروا على دواب للمسلمين .

وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياما . ولم نجد في جبلهم مصحفا ولا فيهم قارئا للقرآن . وانما عندهم عقائدهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة . وأباحوا بها دماء المسلمين . وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء وأخذوا من الأموال مالا يحصى عدده إلا الله تعالى .

فاذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج ، مع أنه قتلهم جميعهم ، وان هؤلاء أحق بأخذ أموالهم . وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل « أنه لا يقتل مدبرهم ولا يجهز على جريحهم ، ولا يغم لهم مالا ولا يسبي لهم ذرية» لأن مثل أولئك لهم تأويل سائغ . وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ . ومثل أولئك إنما يكونون خارجين عن طاعة الامام . وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله ﷺ وسنته . وهم شر من التتار من وجوه متعددة . لكن التتر أكثر وأقوى . فلذلك يظهر كثرة شرهم .

وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم ، كما كان في زمن قازان وهولاكو ، وغيرهما . فانهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم . وأرضهم في لبيت المال .

---

(١) هو عبد الله بن خباب بن الارت ـ بفتح الخاء وتشديد الباء وفتح الهمز والراء المهملة وتشديد التاء . له رؤية ولأبيه صحبة . قال في أسد الغابة : كان طائفة من الخوارج أقبلوا من البصرة إلى إخوانهم من أهل الكوفة ، فلقوا عبد الله بن خباب ومعه امرأته . فقالوا له : من أنت ؟ قال أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فأثنى خيرا عليهم ، فذبحوه ، فسال دمه في الماء ، وقتلو المرأة وهي حامل ملم منه ، فقالت : أنا امرأة ، ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها ، وذلك سنة سبع وثلاثين ، وكان من سادات المسلمين .

وقد قال كثير من السلف : إن الرافضة لا حق لهم في الفيء . لأن الله إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) فمن لم يكن قلبه سليما لهم ، ولسانه مستغفرا لهم ، لم يكن من هؤلاء .

وقطعت أشجارهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه . فقال اليهود : هذا فساد . وأنت يا محمد تنهي عن الفساد . فأنزل الله (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) .

وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر ، وتخريب العامر ، عند الحاجة إليه . فليس ذلك بأولى من قتل النفوس وما امكن غير ذلك .

فان القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها ، وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار . وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم . وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم . لأن التركمان انما قصدهم الرعى ، وقد صار لهم مرعى ، وسائر الفلاحين لا يتركو عمارة أرضهم ويجيئون إليه .

فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره ، وإخلاء الجبل منهم ، وإخراجهم من ديارهم .

وهم يشبهون ما ذكره الله في قوله (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين [1]).

---

(١) سورة الحشر الآيات (٢ ـ ٥)

وايضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز، واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان ، ويعز به أهل أهل الإيمان .

ثم يستطرد الشيخ ناصحاً للسلطان بوجوب اقامة أحكام الاسلام فيقول :ـ

تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد ، وإقامة الشريعة في البلاد . فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون ، بهم وينتصرون لهم . وفي قلوبهم غلٌ عظيم . وابطان معاداة شديدة ، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم . ولو أنه مباطنة العدو . فاذا أمسك رؤسهم الذين يضلونهم ـ مثل نبي العود ـ زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله .

ويتقدم إلى قراهم . وهي قرى متعددة بأعمال دمشق ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، وحمص ، وحلب بأن يقام فيهم شرائع الاسلام ، والجمعة ، والجماعة ، وقراءة القرآن ، ويكون لهم خطباء ومؤذنون ، كسائر قرى المسلمين ، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية . وتنشر فيهم المعالم الاسلامية ، ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام .

فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا : نحن قوم جبال . وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا : أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين . ومن قتل منكم فهو شهيد .

وفي هؤلاء كثير لا يقرون بصلاة ، ولا صيام ، ولا حج ولا عمرة ، ولا يحرمون الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، ولا يؤمنون بالجنة والنار . من جنس الاسماعيلية ، والنصيرية والحاكمية ، والباطنية ، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى باجماع المسلمين .

فتقدم المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الاسلام : من الجمعة ، والجماعة ، وقراءة القرآن ، وتبليغ أحاديث النبي ﷺ في قرى هؤلاء من أعظم المصالح الاسلامية . وأبلغ الجهاد في سبيل الله .

وذلك سبب لانقماع من يباطن العدو من هؤلاء ، ودخولهم في طاعة الله ورسوله ، وطاعة أولى الأمر من المبلمين .

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء .

فان ما فعلوه بالمسلمين في أرض « سيس » نوع من غدرهم الذي به ينصر الله المسلمين عليهم . وفي ذلك لله حكمة عظيمة . ونصرة للاسلام جسيمة .

قال ابن عباس « ما نقض قوم العهد إلا أُديل عليهم العدو » .

ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم بقوة الايمان ، وللعدو من الخذلان ، ما ينصر الله به المؤمنين ، ويذل به الكفار والمنافقين .

والله هو المسئول أن يتم نعمته على سلطان الإسلام خاصة ، وعلى عباده المؤمنين عامة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . [1]انتهى .



(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية ص ١٨٢ ـ ١٩٤ .

رسائل للشيخ من داخل السجن

● رسالة من الشيخ الى تلاميذه واخوانه يرسلها من داخل سجنه، وقد كتبها بالفحم بعد مصادرة أوراقه وكتبه ومنعه من الكتابة :
قال ابن عبد الهادي :

وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه ، وبعضها مكتوب بفحم ، منها ورقة يقول فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، متوافرة ، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الاسلام ، وهو من نعم الله العظام . و(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) فان الشيطان استعمل حزبه في إفساد دين الله ، الذي بعث به رسله ، وأنزل كتبه .

ومن سنة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين : ابراهيم ، وموسى والمسيح ، ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين[1] .

---

(١) وذلك في مسألة شد الرحال وتشييد القبور ودعائها من دون الله .

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور الإخنائية ، فاستعملهم الله تعالى . حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم ، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته ، ومقصودهم إظهار عيوبه ، وما يحتجون به ، فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم ، وظهر لهم جهلهم ، وكذبهم وعجزهم، وشاع هذا في الأرض ، وأن هذا مما لا يقدر عليه إلا الله ، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا فيه عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم : أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائناً من كان ، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله ، لم يجب ، بل ولا يجوز طاعته ، في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين .

وقول القائل : إنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ويعلم أن الأمر بالعكس ، فإن الذي يظهر البدعة ، إما أن يكون لعدم علمه بسنة الرسول ، أو لكونه له غرض وهوى يخالف ذلك ، وهو أولى الجهل بسنة الرسول ، واتباع هواهم بغير هدى من الله (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ، ممن هو أعلم بسنة الرسول منهم ، وأبعد عن الهوى والغرض في مخالفتها (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم ان يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ ، ةالله ولي التوفيق) .

وهذه قضية كبيرة لها شأن عظيم . ولتعلمن نبأه بعد حين .

ثم ذكر الشيخ في الورقة كلاماً ، لا يمكن قراءة جميعه ، لانطماسه وقال بعده :

وكانوا يطلبون تمام الاخنائية [1] ، فعندهم ما يطمهم أضعافها ، وأقوى فقهها منها ، وأشد مخالفة لأغراضهم . فان الزملكانية قد بين فيها من نحو خمسين وجها : أن ما حكم به ورسم به ، مخالف لاجماع المسلمين وما فعلوه ـ لو كان ممن يعرف ما جاء به الرسول، ويتعمد مخالفته ـ لكان كفرا وردة عن الاسلام ، لكنهم جهال دخلوا في شيء ما كانوا يعرفونه ، ولا ظنوا أنه يظهر

(١) رسالة الفها في الرد على الاخنائي المالكي في مسألة الزيارة .

منه أن السلطنة تخالف مرادهم والأمر أعظم مما ظهر لكم ، ونحن ولله الحمد ، على عظيم الجهاد في سبيله .

ثم ذكر كلاما وقال :

بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان [1]،والجبلية [2] ، والجهمية، والاتحادية[3] ، وأمثال ذلك .. من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

● وكتب من داخل السجن رسالة أخرى يقول فيها : -

ونحن ولله الحمد والشكر ، في نعم عظيمة ، تتزايد كل يوم ، ويجدد الله تعالى من نعمه نعما أخرى ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم فاني كنت حريصا على خروج شيء منها ، لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج الاخنائية ، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه . وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق .

فان هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس . فاذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله ، واستحق أن يذله الله ويخزيه .

وما كتبت شيئا من هذا ليكتم عن أحد ، ولو كان مبغضا ، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت

وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا ،

ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد ، والحمد لله حمداً كثيرا طيبا مباركا فيه .

ثم ذكر كلاما. وقال :

كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة (إن ربي لطيف لما يشاء

---

(١) عندما تصدى لقازان ملك التتر وناقشه ورده عن بلاد المسلمين .

(٢) الجبلية هم النصرية واشكالهم الذين حاربهم الشيخ .

(٣) اتباع ابن عربي ومن على شاكلته .

إنـه هـو القـوي العـزيـز) ، العليم الحكيم ، ولا يـدخـل على أحـدٍ ضرر إلا من ذنوبه) ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فـالشكر يوجب المزيد من النعم ، والإستغفار يدفع النقم ، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً لـه «إن أصابتـه سراء شكر وإن أصـابتـه ضراء صبر ، فكان خيراً له . ا هـ [1]

● رسـالـة من داخـل السجن أيضـا من الشيـخ الى بعض اقـاربـه في دمشق :

تعلمون أنا بحمد الله في نعم عظيمـة ، ومنن جسيمـة ، وآلاء متكاثرة ، وأيـادٍ متظاهرة . لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببـال ، ولا تـدور لهم في خيـال . والحمد لله حمدا كثيراً طيبا مباركا فيه . كما يحب ربنا ويرضى . إل أن قال :

والحق دائمًا في انتصار وعلو وازدياد ، والباطل في انخفاض وسفال ونفـاد . وقـد أخضـع الله رقـاب الخصـوم وأذلهم غـايـة الـذل ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه .

ونحن ـ ولله الحمـد ـ قـد اشترطنـا عليهم في ذلـك من الشروط مـا فيـه عـز الاسـلام والسنـة ، وانقماع البـاطـل والبـدعـة ، وقـد دخلـوا في ذلــك كلــه ، وامتنعنـا ، حتى يظهر ذلـك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقـول ولا عهـد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم ، حتى يصير المشروط معمولا ، والمـذكور مفعولا ، ويظهر من عز الاسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم . وقـد أمـد الله من الأسبـاب التي فيهـا عز الاسلام والسنـة ، وقمـع الكفر والبـدعـة ، بـأمور يطـول وصفهـا في كتـاب . وكـذلـك جرى من الأسبـاب التي هي عـز الاسـلام وقمـع اليهـود والنصـارى ، بعـد أن كانـوا قـد استطـاعـوا وحصلت لهم شـوكـة ، وأعــانهم من أعــانهم على أمرٍ فيــه ذل كبير من النــاس ، فلطف الله بـاستعمالنـا في بعض مـا أمر الله بـه ورسـولـه . وجرى في ذلـك ممـا فيــه عـز

---

(١) العقود الدرية ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧ .

المسلمين ، وتأليف قلوبهم ، وقيـامهم على اليهود والنصـارى وذل المشركين وأهل الكتاب ، مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين .

ووصف هذا يطول .

وقد أرسلت اليكم كتابا أطلب ما صنفته في أمر الكنائس ، وهي كراريس بخطي ، قطع النصف البلدي ، فترسلون ذلك إن شـاء الله تعـالى . وتستعينون على ذلـك بـالشيخ جمـال الـدين المزى فـانـه يقلب الكتب ويخرج المطلـوب . وترسلون أيضا من تعليق القاضي أبي يعلي الذي بخـط القـاضي أبي الحسين ، إن أمكن الجميع ، وهـو أحـد عشر مجلـدا ، وإلا فمن أولـه مجلـدا ، أو مجلـدين ، أو ثلاثة .[1]



(١) الكواكب الدرية ص ٣٨٤

الباب السابع

ابن تيمية : اختياراته واجتهاداته

لم يكن ابن تيمية معصوماً ، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ بل كان عالماً مجتهداً له صوابه وخطؤه ، ردَّ على اناس كثيرين ورد عليه أيضاً اناس كثيرون ، وقد قال الامام مالك بن أنس (ما مِنّا الا وَردَّ ورُدَّ عليه الا صاحب هذا القبر) وهذه جملة الأمور التي تفرد بها مخالفاً غيره من أئمة الفقه ومتبعاً فيها أيضا من سلف من الصحابة والتابعين فليس له بحمد الله قول لا سلف له فيه هكذا كان دينه وديدنه لا يقول قولاً لا سلف له فيه . وقد آتاه الله من العلم ما يستطيع به أن يرجح ما يراه راجحاً ، ويبطل ما يراه باطلاً ، ولا أقول إن كل ما رجحه صواب ، وكل ما أبطله باطل وهذه هي جملة اختياراته كما نقلها تلميذه ابن عبد الهادي :-

قال : -

ومن اختياراته التي خالفهم فيها ، أو خالف المشهور من أقوالهم : القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفرا ، طويلا كان أو قصيرا . كما هو مذهب الظاهرية . وقول بعض الصحابة .

والقول بأن البكر لا تستبرأ ، وإن كانت كبيرة . كما هو قول ابن عمر . واختاره البخاري صاحب الصحيح .

والقول بأن سجود التلاوة لا يشترط لـه وضوء . كما يشترط للصلاة . كما هو مذهب ابن عمر . واختيار البخاري أيضاً .

والقول بأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل . فبان نهـاراً لا قضـاء عليه . كما هو الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإليـه ذهب بعض التابعين ، وبعض الفقهاء بعدهم .

والقول بـأن المتمتع يكفيـه سعى واحـد بين الصفـا والمروة . كما هو في حـق القـارن والمفرد . كما هـو قـول ابن عبـاس رضي الله عنهما . وروايـة عن الامـام أحمد بن حنبل . رواها عنه ابنه عبد الله . وكثير من أصحاب الامـام أحمـد لا يعرفونها .

والقول بجوار المسابقة بلا محلل . وان خرج المتسابقان .

والقول باستبراء المختلعة بحيضه . وكـذلـك الموطوءه بشبهـة . والمطلقـة آخر ثلاث تطليقات .

والقول باباحة وطء الوثنيات بملك اليمين .

والقول بجواز عقد الرداء في الاحرام . ولا فـديـة في ذلـك ، وجواز طواف الحائض . ولا شيء عليها ، اذا لم يمكنها أن تطوف طاهراً .

والقول بجواز بيع الأصل بالعصير . كالزيتون بالزيت . والسمسم بالشيرج .

والقول بجواز الوضوء بكل ما يسمى ماء ، مطلقاً كان أو مقيداً .

والقول بجـواز بيـع مـا يتخـذ من الفضـة للتحلي وغيره . كالخـاتم ونحـوه ، بالفضة متفاضلا ، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة .

والقول بأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيـه إلا . أن يتغير ، قليلا كان أو كثيراً .

والقول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء .

والقول بجواز التيمم في مواضع معروفة .

والجمع بين الصلاتين في أماكن مشهورة .

وغير ذلك من الأحكام المعروفة من أقواله .

وكان يميل أخيرا لتـوريث المسلم من الكافر الـذمى ، ولـه في ذلـك مصنف وبحث طويل .

ومن اقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الافتاء بها محن وقلاقل :
قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق .
وأن الطلاق الثلاث لا يقع الا واحدة .
وأن الطلاق المحرم لا يقع .
وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة منها : ـ
قاعدة كبيرة سماها « تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان » نحو أربعين كراسة .
وقاعدة سماها « الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، بقدر النصف من ذلك .
وقاعدة في أن جميع أيمان المسلمين مكفرة ، مجلد لطيف .
وقاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقة .
وقاعدة سماها « التفصيل بين التكفير والتحليل »
وقاعدة سماها « اللمعة »[1] .
وغير ذلك من القواعد والأجوبة في ذلك لا ينحصر ولا ينضبط وله في ذلك جواب اعتراض ، ورد عليه من الديار المصرية . وهو جواب طويل في ثلاث مجلدات ، بقطع نصف البلدى .
وقال ابن رجب الحنبلي : ـ

ذكر نبذة من مفرداته وغرائبه

اختار ارتفاع الحدث بالمياه المتعصرة ، كماء الورد ونحوه ، واختار جواز المسح على النعلين والقدمين ، وكل ما يحتاج في نزعه من الرجل إلى معالجة باليد أو بالرجل الأخر ، فإنه يجوز عنده المسح عليه مع القدمين .
واختار ان المسح على الخفين لا يتوقف مع الحاجة ، كالمسافر على البريد ونحوه ، وفعل ذلك في ذهابه إلى الديار المصرية على خيل البريد ويتوقف مع إمكان النزع وتيسره .
واختار جواز المسح على اللفائف ونحوها .
واختار جواز التيمم لخشية فوات الوقت في حق غير المعذور ، كمن أخر

---

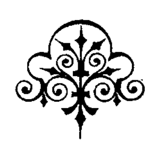
(١) الكواكب الدرية ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

الصلاة عمداً حتى تضايق وقتها . وكذا من خشي فوات الجمعة والعيدين وهو محدث . فأما من استيقظ أو ذكر في آخر وقت الصلاة : فإنه يتطهر بالماء ويصلي ، لأن الوقت متسع في حقه .

واختار أن المرأة اذا لم يمكنها الاغتسال في البيت ، أو شق عليها النزول الى الحمام وتكرره : أنها تتيمم وتصلي .

واختار أن لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره ، ولا لأقل الطهر بين الحيضين ، ولا لسن الايـاس من الحيض . وأن ذلك راجع الى ما تعرفه كل أمرأة من نفسها .

واختار أن تارك الصلاة عمداً : لا يجب عليه القضاء [١] . ولا يشرع له . بل يكثر من النوافل ، وأن القصر يجوز في قصير السفر وطويله ، وأن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة .



(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٤٠٤ ، ٤٠٥

الباب الثامن

ابن تيمية : جنازة مشهودة
وشهادة من الخلق له بالكرامة والولاية

سبع وخمسون عاما امضاها الشيخ وهي عمره في جهاد مرير وسعي متواصل،ودعوة دائمة الى الله عز وجل حتى أتته المنية مسجونا بقلعة دمشق في سعاية للواشين والحاسدين من عباد القبور أنه يمنع الناس من زيارة الرسول والصالحين والصحيح أنه نهى الناس عن شد الرحال اليها مؤكدا ان زيارتهم سنه مستحبة وهذا قد ذكرناه في مقدمة الكتاب ، وفي ردنا على المفتري الكذاب .. اقول كان لا بد بعد ذلك أن يستريح الشيخ ويؤوي - بحمد الله ومشيئته وفضله الى جنة الله ورضوانه وكانت جنازة لا يعهد تاريخ الاسلام مثلها الا لامام اهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهاك وصفاً حيا لجنازته كما رواها ابن كثير في تاريخه .

وفاة شيخ الاسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه : وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الامام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد

المجاهد القدرة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا الامام العلامة المفتي شهاب الدين ابي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الامام شيخ الاسلام أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا بها ، وحضر جمع كثير الى القلعة ، وأذن لهم في الدخول عليه ، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله ، ثم انصرفوا ، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله ، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق الى الجامع وامتلأ الجامع أيضا وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات الى باب اللبادين والغوارة ، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع ، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام ، وصلى عليه أولا بالقلعة ، تقدم في الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام ، ثم صلى عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر ، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره ، ثم تزايد الجمع الى ان ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها ، ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤوس والأصابع ، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم ، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون اليها لشغلهم بالنظر الى الجنازة ، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر ، وتارة يقف حتى تمر الناس .

وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام ، كل باب أشد زحمة من الآخر ، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها ، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة : باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة ، وباب الفراديس ، وباب النصر ، وباب الجابية . وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس ، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوة زين الدين عبد الرحمن ، فلما قضيت الصلاة حمل الى مقبرة الصوفية فدفن الى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله ، وكان

دفنه قبل العصر بيسير ، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم ، وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور الا من هو عاجز عن الحضور ، مع الترحم والدعاء له ، وأنه لو قدر ما تخلف ، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة ، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن ، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل . وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً الى مائة الف الى اكثر من ذلك الى مائتي الف وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله ، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به ، ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهما ، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهما . وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير ، وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد ، وتردد الناس الى قبره أياما كثيرة ليلا ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون ، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة ، ورثاه جماعة بقصائد جمة .

ثم استطرد ابن كثير قائلا :

قال : وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور ، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحراس على الابرجة ، فما أصبح الناس الا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والامر الجسيم ، فبادر الناس على الفور الى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه ، حتى من الغوطة والمرج ، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً ، ولا فتحوا كثيرا من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة ، وكان نائب السطنة تنكز قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة ، فحارت الدولة ماذا يصنعون ، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزاه فيه ، وجلس عنده ، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والاصحاب والاحباب ، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية ، فجلسوا عنده يبكون ويثنون☆ على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ☆ وكنت فيمن حضر هناك

مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله ، وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبلته ، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه . وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين ، فانتهينا فيها الى آخر اقتربت الساعة (إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي الضرير - وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتها - فابتدا من أول سورة الرحمن حتى ختموا القرآن وانا حاضر أسمع وأرى .

ثم شرعوا في غسل الشيخ وخرجت إلى مسجد هناك ولم يدعوا عنده إلا من ساعد في غسله ، منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار ، اهل العلم والايمان ، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم ، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادية الكبيرة ، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين ، وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح، ودخلوا بالجنازة الى الجامع الأموي ، والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها مالا يحصى عدتهم إلا الله تعالى ، فصرخ صارخ وصاح صائح هكذا تكون جنائز أئمة السنة فتباكى الناس وضجوا عند سماع هذا الصارخ ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة ، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف ، بل مرصوصين رصا لا يتمكن أحد من السجود الا بكلفة جوّ الجامع وَبرّى الأزقة والاسواق ، وذلك قبل اذان الظهر بقليل ، وجاء الناس من كل مكان ، ينوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لاكل ولا لشرب ، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف ، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة ، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب

البداية والنهاية ص ١٣٨ ج ١٤ .

لغيبة الخطيب بمصر فصلى عليه اماما ، وهو الشيخ علاء الدين الخراط ، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا ، واجتمعوا بسوق الخيل ، ومن الناس من تعجل بعد أن صلى في الجامع الى مقابر الصوفية ، والناس في بكاء وتهليل في مخافته كل واحد بنفسه ، وفي ثناء وتأسف ، والنساء فوق الاسطحة من هناك الى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن هذا العالم .

وبالجملة كان يوما مشهودا لم يعهد مثله بدمشق الا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة ، ثم دفن عند أخيه قريبا من أذان العصر على التحديد ، ولا يمكن أحد حصر من حضر الجنازة ، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات ا هـ .

يوم الجنائز شهادة لاهل الحق :

قال ابن كثير :

« ثم ذكر الشيخ علم الدين بعد ايراد هذه الترجمة جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها ، وجنازة الامام أحمد ببغداد وشهرتها ، وقال الامام أبو عثمان الصابوني : سمعت أبا عبد الرحمن السيوفي يقول : حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني فلما بلغ الى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقولي : قولوا لاهل البدع بيننا وبينكم الجنائز ، قال ولا شك أن جنازة أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة ، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك ، وتعظيمهم له ، وأن الدولة كانت تحبه ، والشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله توفي ببلدة دمشق ، وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة ، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعا لو جمعهم سلطان

البداية والنهاية ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

قاهر ، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته ، وانتهوا اليها . هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوسا من جهة السلطان ، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة ، مما ينفر منها طباع أهل الأديان ، فضلا عن أهل الاسلام . وهذه كانت جنازته .[1]

الذين تخلفوا عن جنازته :

وقال ايضاً :

« ومـا علمت أحـداً من أهـل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته ، وهم ثلاثة أنفس : وهم ابن جمله ، والصدر ، والقفجاري ، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم ، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس » ا هـ .

ثناء الناس عليه بعد وفاته : ـ

وقال ايضاً :

وتردد شيخنا الامام العلامة برهان الدين الفزاري الى قبره في الايام الثلاثة وكذلك جماعة من علماء الشافعية ، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكبا على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله .

وعملت له ختمات كثيرة ورؤيت له منامات صالحة عجيبة ، ورثى باشعار كثيرة وقصائد مطولة جدا . وقد أفردت له تراجم كثيرة ، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم ، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته وعبادته وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة وصفاته الكبار والصغار ، التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها . ا هـ

---

(١) البداية والنهاية ص ١٣٧ ـ ١٣٨ / ج ١٤ .

البداية ص ١٣٩

انظر البداية والنهاية من ص ١٣٨ ـ ١٤٠ ج ١٤

الباب التاسع

واجبنا نحو شيخ الاسلام ابن تيمية

لم اجد في هذا الصدد خيراً من رسالة كتبها الشيخ الامام القدوة الزاهد عماد الدين أبو العباس بن ابراهيم بن عبد الرحمن الواسطي المتوفي سنة ٧١١ هـ ، والتي كتب هذه الرسالة التي يوصبها فيها اتباع الشيخ شيخ الاسلام بن تيمية وتلاميذه ان يقوموا بحق شيخهم وامامهم وقدوتهم ، ويذكر فيها ما من الله سبحانه وتعالى به عليهم من معرفة الدين الحق والهداية الى الصراط المستقيم على يد شيخهم ابن تيمية في وقت يعيش فيه الناس في الضلال المبين والظلمات العظيمة ، ويذكر انهم هم الفئة الذين قال فيهم الرسول ﷺ .

« لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم كذلك » فالشيخ ابن تيمية وتلاميذه واحبابه وانصاره كانت هي هذه الفئة حتما في زمانه فهم الفئة التي حاربت جميع المرتدين والمارقين بالحجة والبيان والسيف والسنان ، فلقد حاربوا التتار المعتدين المتلبسين بظاهر الشهادة فقط والمخالفين شرائع الاسلام ، وحارب الشيخ كذلك بسيفه طوائف النصرية ، والاسماعيلية والرافضة والباطنية الموالين لأهل الصليب المكفرين لصدر الاسلام ، وكذلك لم نبق طائفة من أهل الباطن كأهل الحلول ، والتأويل والزندقة وعباد القبور ، وأمراء الظلم الا وقد ناقشهم

الشيخ وتلاميذه وابطلوا حججهم وأظهروا كذبهم وتحريفهم او جهلهم وانتحالهم ..

لقد رأى الشيخ عماد الدين هذه النعم العظيمة على شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذه ، فأخذته الحمية والشهامة ، والعزة على جناب الشيخ العظيم فقام يوصي اتباعه بالشيخ ان يعرفوا له حرمته ، ويقدروا له مكانته وينزلوه منزلته .. واترك المجال بعد هذه المقدمة للشيخ عماد الدين ليقدم وصيته الخالدة حيث يقول : -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسبحان الله وبحمده ، تقدس في علوه وجلاله . وتعالى في صفات كماله . وتعاظم في سبحات فرادنيته وجماله ، وتكرم في افضاله وجمال نواله ، جل أن يمثل بشيء من مخلوقاته ، أو يحاط به ، بل هو المحيط بمبتدعاته ، لا تصوره الأوهام ، ولا تقله الأجرام ، ولا يعقل كنه ذاته البصائر ولا الأفهام .

الحمد لله مؤيد الحق وناصره ، ودافع الباطل وكاسره ، ومعز الطائع وجابره ، ومذل الباغي ودائره ، الذي سعد بخطوة الاقتراب من قدسه من قام بأعباء الاتباع في بنانه [1] وأسه ، وفاز بمحبوبيته في ميادين أنسه من بذل ما يهواه في طلبه من قلبه وحسه ، وتثبت في مهامه الشكوك منتظرا زوال لبسه ، سبحانه وبحمده له المثل الأعلى ، والنور الأتم الأجلى ، والبرهان الظاهر في الشريعة المثلى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . الذي شهدت لوحدانيته الفطر ، وأسلم لربوبيته ذو العقل والنظر ، وظهرت أحكامه في الآى والسور ، وتم اقتداره في تنزل القدر .

وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، الذي شهدت بنبوته الهواتف والأحبار ، فكان قبل ظهوره ينتظر ، وتلاحقت عند مبعثه معجزاته من حنين الجذع وانقياد الشجر ، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل الخشية والحذر ، والعلم المنور ، فهم قدوة التابع للأثر .

وبعد . فهذه رسالة سطرها العبد الضعيف الراجى رحمة ربه وغفرانه ، وكرمه وامتنانه . أحمد بن ابراهيم الواسطي . عامله الله بما هو أهله . فأنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

إلى إخوانه في الله السادة العلماء ، والأئمة الاتقياء ، ذوي العلم النافع ، والقلب الخاشع ، والنور الساطع ، الذين كساهم الله كسوة الاتباع ، وأرجو من كرمه أن يحققهم بحقائق الانتفاع : ـ

السيد الأجل العالم ، الفاضل فخر المحدثين ، ومصباح المتعبدين المتوجه إلى رب العالمين ، تقي الدين أبي حفص عمر بن عبد الله بن عبد الأحد بن شقير .

والشيخ الأجل ، العالم الفاضل السالك الناسك ذي العلم والعمل ، المكتسي من الصفات الحميدة أجمل الحلل ، الشيخ شمس الدين محمد ابن عبد الأحد الآمدي .

والسيد الأخ ، العالم الفاضل ، السالك الناسك ، التقي الصالح ، الذي سيماء نور قلبه لائح على صفحات وجهه ، شرف الدين محمد ابن المنجى .

والسيد الأخ ، الفقيه العالم النبيل ، الفاضل فخر المحصلين ، زين الدين ، عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي .

والسيد الأخ العالم الفاضل ، السالك الناسك ، ذي اللب الراجح والعمل الصالح ، والسكينة الوافرة ، والفضيلة الغامرة ، نور الدين محمد بن محمد بن محمد بن الصائغ .

وأخيه السيد الأخ ، العالم التقي الصالح ، الخير الدين ، العالم الثقة ، الأمين الراجح ، ذى السمت الحسن ، والدين المتين ، في اتباع السنن ، فخر الدين محمد .

والأخ العزيز الصالح ، الطالب لطريق ربه ، والراغب في مرضاته وحبه والعالم الفاضل ، الولد شرف الدين محمد بن سعد الدين سعد الله ابن نجيح .

وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا الامام ، الأمّة [1] الهمام، محي السنة، وقامع البدعة، ناصر الحديث ، مفتي الفرق ، الفائق عن الحقائق ، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، الجامع بين الظاهر والباطن ، فهو يقضي بالحق ظاهرا وقلبه في العلى قاطن ، أنموذج الخلفاء الراشدين ، والأئمة

المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم، فذكرهم بها الشيخ ، فكان في دارس نهجهم سالكا ، ولموات حذوهم محييا ، ولأعنة قواعدهم مالكا : الشيخ الامام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، أعاد الله علينا بركته ، ورفع إلى مدارج العلى درجته، وأدام توفيق السادة المبدوّ بذكرهم وتسديدهم ، وأجزل لهم حظهم ، ومزيدهم .

السلام عليكم معشر الاخوان ورحمة الله وبركاته ، جعلنا الله واياكم ممن ثبت على قرع نوائب الحق جاشه، واحتسب لله ما بذله من نفسه في اقامة دينه ، وما احتو شته من ذلك وحاشه ، واحتذى حذو السبق الأولين ، من المهاجرين والأنصار ، والذين لم تأخذهم في الله لومة لائم، فما ضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، مع قلة عددهم في أول الأمر ، فكانوا مع ذلك كل منهم مجاهد بدين الله قائم . ونرجو من كرم الله تعالى أن يوفقنا لأعمالهم ، ويرزق قلوبنا قسطا من أحوالهم ، وينظمنا في سلكهم، تحت سجفتهم ولوائهم، مع قائدهم وإمامهم سيد المرسلين، وامام المتقين ، محمد صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أذكركم رحمكم الله بما أنتم به عالمون ، عملا بقوله تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) .

وأبدأ من ذلك بأن أوصي نفسي واياكم بتقوى الله ، وهي وصية الله تعالى إلينا والى الأمم من قبلنا ، كما بين سبحانه وتعالى قائلا وموصيا : (ولقد وصينا الذين أُوتو الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) .

وقد علمتم تفاصيل التقوى على الجوارح والقلوب ، بحسب الأوقات والأحوال : من الأقوال ، والأعمال ، والارادات ، والنيات .

وينبغي لنا جميعا أن لا نقنع من الأعمال بصورها حتى نطالب قلوبنا بين يدي الله تعالى بحقائقها . ومع ذلك فلتكن لنا همة علوية ، تترامى إلى أوطان القرب ، ونفحات المحبوبية والحب . فالسعيد من حظى من ذلك بنصيب . وكان مولاه منه على سائر الأحوال قريبا بخصوص التقريب .

فيكتسي العبد من ذلك ثمرة الخشية والتعظيم، للعزيز العظيم، فالحب والخشية ثابتان في الكتاب العزيز والسنة المأثورة . قال تعالى : (يحبهم

ويحبونه[1]) (والذين آمنوا أشد حبا لله[2]) وقال تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء[3]) وفي الحديث « أسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربني الى حبك[4]» وفي الحديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله [5]».

ومعلوم أن الناس يتفاوتون في مقامات الحب والخشية ، في مقام أعلى من مقام ، ونصيب أرفع من نصيب ، فلتكن همة أحدنا من مقامات الحب والخشية أعلاه ، ولا يقنع الا بذروته وذراه ، فالهمم القصيرة تقنع بأيسر نصيب، والهمم العلية تعلو مع الأنفاس الى قريب الحبيب لا يشغلنا عن ذلك ما هو دونه من الفضائل ، والعاقل لا يقنع بأمر مفضول عن حال فاضل . ولتكن الهمة منقسمة على نيل المراتب الظاهرة ، وتحصيل المقامات الباطنة . فليس من الانصاف الانصباب الى الظواهر والتشاغل عن المطالب العلوية ذوات الأنوار البواهر .

وليكن لنا جميعا بين الليل والنهار ساعة ، نخلو فيها بربنا جل اسمه وتعالى قدسه ، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ، ونطرح أشغال الدنيا من قلوبنا ، فنزهد فيما سوى الله ساعة من نهار ، فبذلك يعرف الانسان حاله مع ربه ، فمن كان له مع ربه حال ، تحركت في تلك الساعة عزائمه . وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره ، وطارت الى العلى زفراته وكوامنه . وتلك الساعة أنموذج لحاله العبد في قبره ، حين خلوه عن ماله وحبه . فمن لم يخل قلبه لله ساعة من نهار ، لما احتوشه من الهموم الدنيوية وذوات الآصار . فليعلم أنه ليس له ثم رابطة علوية ، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية ، فليبك على نفسه ، ولا يرضى منها الا بنصيب من قرب ربه وأنسه .

فاذا حصلت تلك الساعة، أمكن ايقاع الصلوات الخمس على نمطها من

---

(١) سورة المائدة آية (٥٤)

(٢) سورة البقرة آية (١٦٥)

(٣) سورة فاطر آية (٢٨)

(٤) رواه الترمذي عن ابن عباس في دعاء طويل .

(٥) رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بدون قوله « ولخرجته الخ » وهو بهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي عن أبي الدرداء .

الحضور والخشوع ، والهيبة للرب العظيم في السجود والركوع فلا ينبغي لنا أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة بساعة واحدة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته ، ثم نجتهد على ايقاع الفرائض على ذلك النهج في رعايته ، وذلك طريق لنا جميعا ان شاء الله تعالى الى النفوذ ، فالفقيه اذا لم ينفذ في علمه حصل له الشطر الظاهر ، وفاته الشطر الباطن . لاتصاف قلبه بالجمود . وبعده في العبادة والتلاوة عن لين القلوب والجلود . كما قال تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله [١]) وبذلك يرتقي الفقيه عن فقهاء عصرنا . ويتميز به عنهم ، فالنافذ من الفقهاء له البصيرة المنورة ، والذوق الصحيح ، والفراسة الصادقة ، والمعرفة التامة ، والشهادة على غيره بصحيح الأعمال وسقيمها . ومن لم ينفذ لم تكن له هذه الخصوصية ، وأبصر بعض الأشياء وغاب عنه بعضها .

فيتعين علينا جميعا طلب النفوذ الى حضرة قرب المعبود، ولقائه بذوق الايقان ، لنعبده كأننا نراه كما جاء في الحديث [٢].

وبعد ذلك الخطوة في هذه الدار بلقاء رسول الله ﷺ، غيبا في غيب، وسرا في سر، بالعكوف على معرفة أيامه وسننه واتباعها . فتبقى البصيرة شاخصة اليه ، تراه عيانا في الغيب، كأنها معه ﷺ، وفي أيامه. فيجاهد على دينه . ويبذل ما استطاع من نفسه في نصرته .

وكذلك من سلك في طريق النفوذ يرجى له أن يلقى ربه بقلبه غيبا في غيب ، وسرا في سر ، فيرزق القلب قسطا من المحبة والخشية . والتعظيم اليقيني ، فيرى الحقائق بقلبه من وراء ستر رقيق . وذلك هو المعبر عنه بالنفوذ . ويصل الى قلبه من وراء ذلك الستر ما يغمره من أنوار العظمة والجلال والبهاء والكمال ، فيتنور العلم الذي اكتسبه العبد . ويبقى له كيفية أخرى زائدة على الكيفية المعهودة من البهجة والأنوار والقوة في الاعلان والاسرار .

---

(١) سورة الزمر آية (٢٣)

(٢) حديث جبريل في سؤاله عن الاسلام والايمان والاحسان فقال له «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» رواه البخاري ومسلم عن عمر وعن ابنه رضي الله عنهما .

فلا ينبغي لنا أ. نتشاغل عن نيل هذه الموهبة السنية ، بشواغل الدنيا وهمومها ، فتنقطع بذلك - كما تقدم - بالشيء المفضول عن الأمر المهم الفاضل . فاذا سلكنا في ذلك برهة من الزمان ، ورزقنا الله تعالى نفوذا ، وتمكنا في ذلك النفوذ فلا تعود هذه العوارض الجزئيات الكونيات تؤثر فينا إن شاء الله تعالى .

وليكن شأن أحدنا اليوم : التعديل بين المصالح الدنيوية والفضائل العلمية ، والتوجهات القلبية ، ولا يقنع أحدنا بأحد هذه الثلاثة عن الأخريين . فيفوته المطلوب . ومتى اجتهد في التعديل فانه ان شاء الله تعالى بقدر ما يحصل للعبد جزء من أحدهم ، حصل جزءاً من الآخر . ثم بالصبر على ذلك تجتمع الأجزاء المحصلة ، فتصير مرتبة عالية عند النهاية - ان شاء الله تعالى .

هذا وإن كنتم - أيدكم الله تعالى - بذلك عالمين ، لكن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثم يستطرد الشيخ عماد الدين قائلا في رسالته :-

واعلموا - ايدكم الله - أنه يجب عليكم أن تشكروا ربكم تعالى في هذا العصر ، حيث جعلكم بين جميع أهل هذا العصر كالشامة البيضاء في الحيوان الأسود . لكن من لم يسافر الى الأقطار ، ولم يتعرف أحوال الناس ، لا يدري قدر ما هو فيه من العافية . فأنتم ان شاء الله تعالى في حق هذه الامة الاولى كما قال تعالى (كنتم خير امة اخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [1]) وكما قال تعالى (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)[2] .

أصبحتم اخواني تحت سنجق [3]رسول الله ﷺ ، ان شاء الله تعالى ، مع

(١) آل عمران (١١٠)

(٢) سورة الحج آية (٤١)

(٣) أي تحت لوائه ورايته

شيخكم وامامكم، وشيخنا وامامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه . قد تميزتم عن جميع أهل الأرض ، فقائها وفقرائها ، وصوفيتها، وعوامها : بالدين الصحيح .

وقد عرفتم ما أحدث الناس من الاحداث ، في الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام . فأنتم اليوم في مقابلة الجهمية من الفقهاء . نصرتم الله ورسوله في حفظ ما أضاعوه من دين الله ، تصلحون ما أفسدوه من تعطيل صفات الله .

وأنتم أيضا في مقابلة من لم ينفذ في علمه من الفقهاء الى رسول الله ﷺ ، وجمد على مجرد تقليد الأئمة فانكم قد نصرتم الله ورسوله في تنفيذ العلم إلى أصوله من الكتاب والسنة ، واتحاد أقوال الأئمة ، تأسيا بهم لا تقليداً لهم .

وأتم أيضا في مقابلة ما أحدثته أنواع الفقراء من الأحمدية [١] والحريرية [٢] من اظهار شعار المكاء والتصدية [٣] ، ومؤاخاة النساء والصبيان ، والاعراض عن دين الله الى خرافات مكذوبة عن مشايخهم ، واستنادهم الى شيوخهم وتقليدهم في صائب حركاتهم وخطئها ، واعراضهم عن دين الله الذي أنزله من السماء . فأنتم بحمد الله تجاهدون هذا الصنف ايضا كما تجاهدون من سبق . حفظتم من دين الله ما أضاعوه . وعرفتم ما جهلوه تقومون من الدين ما عوجوه ، وتصلحون ما افسدوه .

وأنتم أيضا في مقابلة رسمية الصوفية والفقهاء ، وما أحدثوه من الرسوم الوضعية ، والآصار الابتداعية ، من التصنع باللباس ، والاطراق والسجادة لنيل الرزق من المعلوم ، ولبس البقيار ، والاكمام الواسعة في حضرة الدرس ، وتمنيق الكلام ، والعدو بين يدي المدرس راكعين ، حفظا للمناصب ، واستجلابا للرزق والادرار .

فحفظ هؤلاء في عبادة الله غيره ، وتألهوا سواه . ففسدت قلوبهم من حيث لا يشعرون . يجتمعون لغير الله بل للمعلوم ، ويلبسون للمعلوم وكذلك في

---

(١) اتباع احمد الرفاعي البطائحي وسموا ايضا البطائحية

(٢) فرقة صوفية .

(٣) المكاء صوت القطط ، والتصديد : التصفيق وكان كفار قلة يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون في طوافهم ، وشبه الشيخ الصوفية بذلك لأن أذكارهم برفع الاصوات لقولهم هوهو . تكون كالمكاء أو النباح ولانهم يصفقون في اذكارهم ويتمايلون ويصرخون .

أغلب حركاتهم يراعون ولاة المعلوم . فضيعوا كثيرا من دين الله وأماتوه . وحفظتم أنتم ما ضيعوه ، وقومتم ما عوجوه .

وكذلك أنتم في مقابلة ما أحدثته الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد ، وتأله المخلوقات . كاليونسية ، والعربية ، والصدرية ، والسبعينية، والتلمسانية . فكل هؤلاء بدلوا دين الله تعالى وقلبوه . وأعرضوا عن شريعة رسول الله ﷺ .

فاليونسية يتألهون شيخهم ، ويجعلونه مظهراً للحق ، ويستهينون بالعبادات ، ويظهرون بالفرعنة والصولة ، والسفاهة والمحالات ، لما وقر في بواطنهم من الخيالات الفاسدة ، وقبلتهم الشيخ يونس . ورسول الله ﷺ والقرآن المجيد عنهم بمعزل ، يؤمنون به بألسنتهم ، ويكفرون به بأفعالهم .

وكذلك الاتحادية ، يجعلون الوجود مظهرا للحق ، باعتبار أن لا متحرك في الكون سواه ، ولا ناطق في الأشخاص غيره . وفيهم من لا يفرق بين الظاهر والمظهر ، فيجعل الأمر كموج البحر ، فلا يفرق بين عين الموجة وبين عين البحر ، حتى ان أحدهم يتوهم انه الله ، فينطق على لسانه ، ثم يفعل ما اراد من الفواحش والمعاصي ، لانه يعتقد ارتفاع الثنوية فمن العابد ومن المعبود ؟ صار الكل واحدا .

اجتمعنا بهذا الصنف في الربط والزوايا .

فأنتم بحمد الله قائمون في وجه هؤلاء أيضاً تنصرون الله ورسوله ، وتذبون عن دينه ، وتعلمون على إصلاح ما أفسدوا وعلى تقويم ما عوجوا فان هؤلاء محوا رسم الدين ، وقلعو أثره . فلا يقال أفسدوا ولا عوجوا بل بالغوا في هدم الدين ومحو أثره . ولا قربة أفضل عند الله من القيام بجهاد هؤلاء بما أمكن ، وتبين مذاهبهم للخاص والعام . وكذلك جهاد كل من الحد في دين الله وزاغ عن حدوده وشريعته . كائنا في ذلك ما كان من فتنة وقول . كما قيل :

اذا رضى الحبيب فلا أبالي ☆ أقام الحى أم جد الرحيل .

وبالله المستعان .

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون بجهاد الأمراء والأجناد ، تصلحون ما أفسدوا

من المظالم والاجحافات ، وسوء السيرة الناشئة عن الجهل بدين الله ، بما أمكن . وذلك لبعد العهد عن رسول الله ﷺ . لأن اليوم له سبعمائة سنة ، فأنتم بحمد الله تجددون ما دثر من ذلك واندثر .

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون في وجوه العامة ، مما أحدثوا من تعظيم الميلادة . والقلندس ، وخميس البيض . والشعانين[1] ، وتقبيل القبور والأحجار ، والتوسل عندها . ومعلوم أن ذلك كله من شعائر النصارى والجاهلية . وانما بعث رسول الله ﷺ ليوحد الله ويعبد وحده ، ولا يأله معه شيء من مخلوقاته . بعثه الله تعالى ناسخا لجميع الشرائع والأديان والأعياد . فانتم بحمد الله قائمون باصلاح ما أفسد الناس من ذلك .

وقائمون في وجوه من ينصر هذه البدع من مارقي الفقهاء ، أهل الكيد والضرار لاولياء الله ، أهل المقاصد الفاسدة . والقلوب التي هي عن نصر الحق حائدة .

وانما اعرض هذا الضعيف عن ذكر قيامكم في وجوه التتر والنصارى ، واليهود ، والرافضة ، والمعتزلة، والقدرية ، وأصناف أهل البدع والضلالات لأن الناس متفقون على ذمهم . يزعمون أنهم قائمون برد بدعتهم . ولا يقومون بتوفية حق الرد عليهم كما تقومون . بل يعلمون ويجبنون عن اللقاء فلا يجاهدون ، وتأخذهم في الله اللائمة . لحفظ مناصبهم ، وابقاء على اعراضهم .

سافرنا البلاد فلم نر من يقوم بدين الله في وجوه مثل هؤلاء - حق القيام - سواكم ، فأنتم القائمون في وجوه هؤلاء إن شاء الله . بقيامكم بنصرة شيخكم وشيخنا - أيده الله - حق القيام ، بخلاف من ادعى من الناس أنهم يقومون بذلك .

فصبرا يا اخواني على ما أقامكم الله فيه ، من نصرة دينه وتقويم اعوجاجه ، وخذلان أعدائه . واستعينوا بالله ، ولا تأخذكم فيه لومة لائم . وانما هي أيام قلائل . والدين منصور . قد تولى الله اقامته ونصره ، ونصرة من قام به من أوليائه ، ان شاء الله ، ظاهراً وباطناً .

وابذلوا فيما أقمتم فيه ما أمكنكم من الأنفس والأموال ، والافعال ، والأقوال ، عسى أن تلحقوا بذلك بسلفكم أصحاب رسول الله ﷺ . فلقد عرفتم مالقوا في

ذات الله ، كما قال خبيب حين صلب على الجذع :ـ

وذلك في ذات الآله ، وان يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد عرفتم ما لقى رسول الله ﷺ من الضر والفاقة في شعب بني هاشم ، وما لقى السابقون الأولون من التعذيب والهجرة الى الحبشة، وما لقى المهاجرون والأنصار في احد ، وفي بئر معونة ، وفي قتال أهل الردة ، وفي جهاد الشام والعراق ، وغير ذلك .

وانظروا كيف بذلوا نفوسهم وأموالهم لله ، حبا له ، وشوقا اليه . فكذلك أنتم ، رحمكم الله . كل منكم على قدر امكانه واستطاعته ، بفعله ، وبقوله ، وبخطه ، وبقلبه ، وبدعائه . كل ذلك جهاد . أرجو أن لا يخيب من عامل الله بشيء من ذلك . اذ لا عيش الا في ذلك ، ولو لم يكن فيه الا همكم ، مزاحمة لأهل الزيغ ، مشوشة لهم ، تبغضونهم في الله ، وتطلبون استقامتهم في دين الله . وذلك من الجهاد الباطن إن شاء الله تعالى .

ثم يستطرد الشيخ علم الدين ايضا قائلا : ـ

ثم اعرفوا اخواني حق ما أنعم الله عليكم من قيامكم بذلك . واعرفوا طريقكم الى ذلك ، واشكروا الله تعالى عليها . وهو أن أقام لكم ولنا في هذا العصر مثل سيدنا الشيخ الذي فتح الله به أقفال القلوب ، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات ، حيث تاه العقل بين هذه الفرق ، ولم يهتد الى حقيقة دين الرسول ﷺ .

ومن العجب أن كلا منهم يدعى أنه على دين الرسول ، حتى كشف الله لنا ولكم بواسطة هذا الرجل عن حقيقة دينه الذي أنزله من السماء وارتضاه لعباده .

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقواما يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق ، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الاسلام . فلا يعرفون الاسلام الا هكذا .

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بين لكم اعلام

دينكم . وهداكم الله بـه وايـانـا الى نهج شريعتـه . وبين لكم بهـذا النور المحمـدي ضلالات العبـاد وانحرافـاتهم ، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم ، والصحيح من السقيم . وأرجوا أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة . الـذين لا يضرهم من خـذلهم ولا من خالفهم . وهم بالشام ان شاء الله تعالى .

فصـــل

ثم إذا علمتم ذلك ، فاعرفوا حق هذا الرجل الـذي هو بين أظهركم وقـدره ، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقـدره . فمن وقع دين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قلبـه بموقع يستحقـه ، عرف حق مـا قام به هذا الرجل بين أظهر عبـاد الله، يقوم معوجهم ، ويصلح فسـادهم ، ويلم شعثهم ، جهد امكانه ، في الزمـان المظلم ، الـذي انحرف فيـه الـدين ، وجهلت السنن ، وعهدت البـدع ، وصـار المعروف منكرا ، والمنكر معروفـا ، والقـابض على دينه ، كالقابض على الجمر ، فان أجر من قام بـاظهـار هـذا النور في هـذه الظلمات لا يوصف ، وخطره لا يعرف .

فالله الله في حفظ الأدب معـه ، والانفعـال لأوامره ، وحفـظ حرمـاتـه في الغيب والشهادة ، وحب من أحبه ، ومجانبة من أبغضـه وتنقصـه ورد غيبتـه ، والانتصار له في الحق .

واعلموا رحمكم الله، أن هنـا من سـافر الى الأقـاليم ، وعرف النـاس وأذواقهم وأشرف على غـالب أحـوالهم ، فـوالله ، ثم والله ثم والله ، لم ير أديم تحت السماء مثل شيخكم : علما ، وعملا ، وحالا ، وخلقا، واتباعا، وكرمـا وحلمـا . في حق نفسه ، وقياما في حق الله عند انتهاك حرماته . أصدق الناس عقدا ، وأصلحهم علما وعزما ، وأنفـذهم وأعلاهم في انتصـار الحق وقيـامـه همـة ، وأسخـاهم كفـا ، وأكملهم اتباعا لنبيه محمد ﷺ .

مـا رأينـا في عصرنـا هـذا من تستجلي النبوة المحمـديـة وسنتهـا من أقوالـه وأفعـالـه الا هـذا الرجل . بحيث يشهـد القلب الصحيـح أن هـذا هـو الاتبـاع حقيقة .

وبعد ذلك كله فقول الحق فريضة ، فلا ندعي فيه العصمة عن الخطأ ، ولا ندعي اكماله لغايات الخصائص المطلوبة . فقد يكون في بعض الناقصين خصوصية مقصودة مطلوبة ، لا يتم الكمال الا بهاتيك الخصوصية وهذا القدر لا يجهله منصف عارف . ولولا أن قول الحق فريضة ، والتعصب للانسان هوى ، لأعرضت عن ذكر هذا - لكن يجب قول الحق - ان ساء أو سر . والله المستعان .

اذا علمتم ذلك - أيدكم الله تعالى - فاحفظوا قلبه ، فان مثل هذا قد يدعى عظيما في ملكوت السماء . واعملوا على رضاه بكل ممكن واستجلبوا وده لكم ، وحبه اياكم بمهما قدرتم عليه . فان مثل هذا يكون شهيدا، والشهداء في العصر لمثله ، فان حصلت لكم محبته رجوت لكم بذلك خصوصية أكتمها ولا أذكرها ، وربما يفطن لها الأذكياء منكم ، وربما سمحت نفسي بذكرها ، كيلا أكتم عنكم نصحي .

وتلك الخصوصية : هي أن ترزقوا قسطا من نصيبه الخاص المحمدي مع الله تعالى . فان ذلك انما يسري بواسطة محبة الشيخ للمريد ، واستجلاب المريد محبة الشيخ بتأتيه معه ، وحفظ قلبه وخاطره ، واستجلاب وده ومحبته ، فأرجو بذلك لكم قسطا مما بينه وبين الله تعالى ، فضلا عما تكسبونه من ظاهر علمه وفوائده وسياسته ، إن شاء الله تعالى .

وأرجو أنكم اذا فتحتم بينكم وبين ربكم تعالى بصحيح المعاملة بحفظ تلك الساعة في الصلوات الخمس والتهجد أن ينفتح لكم معرفة حقيقية هذا الرجل ونبأه إن شاء الله تعالى .

وإنما ذكرت حفظ الساعة - وان كان في الصلوات الخمس كفاية . اذا قام العبد فيها لحق الله تعالى - وذلك لأن الصلوات قد تهجم على العبد وقلبه مأخوذ في جوانب الظاهر ، فلا يعرف نصيب قلبه من ربه فيها ، فاذا كان للعبد ساعة بين الليل والنهار عرف فيها نصيب قلبه من ربه ، فاذا جاءت الصلوات ، عرف فيها حاله وزيادته ونقصانه باعتبار حالته مع ربه في تلك الساعة . وبالله المستعان .

واذا عرفتم قدر دين الله تعالى الذي أنزله على رسوله ﷺ، وعرفتم قدر

حقائق الدين الذي يعبر عنه بالنفوذ الى الله تعالى ، والخطوة بقربه . ثم عرفتم اجتماع الأمرين في شخص معين ، ثم عرفتم انحراف الأمة عن الصراط المستقيم ، وقيام الرجل المعين الجامع الظاهر والباطن في وجوه المنحرفين ، بنصر الله تعالى ودينه ، ويقوم معوجهم ، ويلم شعثهم ، ويصلح فاسدهم . ثم سمعتم بعد ذلك طعن طاعن عليه من أصحابه أو من غيرهم ، فانه لا يخفى عنكم محق هو ، أو مبطل ؟ ان شاء الله .

وبرهان ذلك : أن المحق طالب الهدى والحق بغرض عند من أنكر عليه ذلك الفعل الذي أنكره ، إما بصيغة السؤال أو الاستفهام بالتلطف عن ذلك النقص الذي رآه فيه ، أو بلغه عنه ، فان وجد هناك اجتهاداً ، أو رأيا أو حجة ، قنع بذلك ، وأمسك ، ولم يفش ذلك الى غيره ، الا مع اقامة ما بينه من الاجتهاد ، أو الرأى، أو الحاجة ، ليسد الخلل بذلك . فمثل هذا يكون طالب هدى ، محباً ، ناصحا ، يطلب الحق ، ويروم تقويم أستاذه عن انحرافه بتعريفه وتفويضه . كما يروم أستاذه تقويمه . كما قال بعض الخلفاء الراشدين [1] ـ ولا يحضرني اسمه ـ « اذا اعوججت فقوموني» .

فهذا حق واجب بين الأستاذ والطالب . فان الاستاذ يطلب اقامة الحق على نفسه ليقوم به ، ويتهم نفسه أحيانا ، ويتعرف أحواله من غيره ، مما عنده من النصفة وطلب الحق ، والحذر من الباطل ، كما يطلب المريد ذلك من شيخه من التقويم ، واصلاح الفاسد من الأعمال والأقوال .

ومن براهين المحق : أن يكون عدلا في مدحه ، عدلا في ذمه، لا يحمله الهوى ـ عند وجود المراد ـ على الافراط في المدح ، ولا يحمله الهوى ـ عند تعذر المقصود ـ على نسيان الفضائل والمناقب ، وتعديد المساوىء والمثالب .

فالمحق في حالتي غضبه ورضاه ثابت على مدح من مدحه وأثنى عليه ، ثابت على ذم من ثلبه وحطظ عليه .

وأما من عمل كراسة في عد مثالب هذا الرجل القائم بهذه الصفات الكاملة

---

(١) هو ابو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كذا في المنقول عنه ـ ا هـ من هامش الأصل وذلك في أول خطبة قام بها بعد الخلافة ويروى أيضاً عن عمر :

بين أصناف هذا العالم المنحرف ، في هذا الزمـان المظلم، ثم ذكر مع ذلـك شيئـاً من فضائله ، ويعلم أنه ليس المقصود ذكر الفضائل، بل المقصود تلك المثـالب . ثم أخذ الكراسة يقرؤها على أصحـابـه واحـدا واحـدا في خلوة ، يوقف بـذلـك هممهم عن شيخهم ، ويريهم قدحا فيه . فاني أستخير الله تعـالى وأجتهـد رأيي في مثل هـذا الرجل ، وأقول انتصـارا لمن ينصر دين الله ، بين أعـداء الله في رأس السبعمائة ، فان نصره مثل هذا الرجل واجبـة على كل مؤمن كما قـال ورقـة بن نوفل : «لئن أدركني يومك لانصرنك نصرا مؤزرا [1]» ثم أسأل الله تعالى العصمـة فيما أقول عن تعدى الحدود والاخلاد الى الهوى .

أقول : مثل هذا ـ ولا أعين الشخص المذكور بعينه ـ لا يخلو من أمور :ـ

أحدها : أن يكون ذا سن تغير رأيه لسنه . لا بمعنى أنـه اضطرب بل بمعنى أن السن اذا كبر يجتهد صاحبه للحق . ثم يضعه في غير مواضعه . مثلا يجتهـد أن انكار المنكر واجب . وهذا منكر . وصاحبـه قـد راج على النـاس . فيجب على تعريف الناس ما راج عليهم، وتغيب عليه المفاسد في ذلك .

فمنها : تخذيل الطلبة ، وهم مضطرون الى محبـة شيخهم ، ليـأخـذوا عنـه . فمتى تغيرت قلوبهم عليه ورأوا فيـه نقصـا حرموا فوائـده الظـاهرة والبـاطنـة . وخيف عليهم المقت من الله أولا . ثم من الشيخ ثانيا .

المفسـدة الثـانيـة : اذا شعر اهل البـدع الـذين نحن وشيخنـا قـائمون الليل والنهار بـالجهـاد والتوجـه في وجوههم لنصرة الحق : أن في أصحـابنـا من ثلب رئيس القوم بمثل هـذا . فـانهم يتطرقـون بـذلـك الى الاشتفـاء من أهـل الحـق ويجعلونه حجة لهم .

المفسدة الثالثة : تعـديـد المثـالب في مقـابلـة مـا يستغرقهـا ويزيـد عليهـا بأضعاف كثيرة من المناقب ، فان ذلك ظلم وجهل .

والأمر الثـاني ، من الأمور المـوجبـة لـذلـك : تغير حـالـة وقلبـه . وفسـاد سلوكه بحسد كان كامناً فيه . وكان يكتمه برهة من الزمان . فظهر ذلـك الكمين في قالب ، صورته حق ومعناه باطل .

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي .

وفي الجملة ـ ايدكم الله ـ اذا رأيتم طاعنا على صاحبكم فافتقدوه في عقله أولا ، ثم في فهمه ، ثم في صدقه، ثم في سنه . فاذا وجدتم الاضطراب في عقله ، دلكم على جهله بصاحبكم . وما يقول فيه وعنه . ومثله قلة الفهم . ومثله عدم الصدق ، أو قصوره ، لأن نقصان الفهم يؤدي الى نقصان الصدق بحسب ما غاب عقله عنه . ومثله العلو في السن فانه يشيخ فيه الرأي والعقل كما تشيخ فيه القوى الظاهرة الحسية ، فاتهموا مثل هذا الشخص واحذروه، واعرضوا عنه اعراض مداراة بلا جدل ولا خصومة .

وصفة الامتحان بصحة ادراك الشخص وعقله وفهمه : أن تسألوه عم مسألة سلوكية . أو علمية ، فاذا أجاب عنها فأوردوا على الجواب اشكالا متوجها بتوجيه صحيح ، فان رأيتم الرجل يروح يمينا وشمالا ، ويخرج عن ذلك المعنى الى معان خارجة ، وحكايات ليست في المعنى حتى ينسى رب المسألة سؤاله ، حيث توهه عنه بكلام لا فائدة فيه ، فمثل هذا لا تعتمدوا على طعنه ، ولا على مدحه ، فانه ناقص الفطرة ، كثير الخيال ، لا يثبت على تحري المدارك العلمية ، ولا تنكروا مثل انكار هذا . فانه اشتهر قيام ذي الخويصرة التيمي الى رسول الله ﷺ وقوله له «اعدل ـ فانك لم تعدل ـ ان هذه قسمة لم يرد بها وجه الله تعالى» أو نحو ذلك .

فوقوع هذا وأمثاله من بعض معجزات الرسول ﷺ. فانه قال : «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» وان كان ذلك في اليهود والنصارى، لكن لما كانوا منحرفين عن نهج الصواب، فكذلك يكون في هذه الأمة من يحذو حذو كل منحرف وجد في العالم، متقدما كان او متأخرا ، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .

يا سبحان الله العظيم ، أين عقولاء هؤلاء ؟ أعميت أبصارهم وبصائرهم؟ افلا يرون ما الناس فيه من العمى والحيرة في الزمان المظلم المدلهم ، الذي قد ملكت فيه الكفار معظم الدنيا؟ وقد بقيت هذه الخطة الضيقة ، يشم المؤمنون فيها رائحة الاسلام؟ وفي هذه الخطة الضيقة من الظلمات من علماء السوء والدعاة الى الباطل واقامته ، ودحض الحق وأهله مالا يحصر في كتاب . ثم ان الله تعالى قد رحم هذه الامة باقامة رجل قوي الهمة ، ضعيف التركيب ، قد

فرق نفسه وهمه في مصالح العالم ، واصلاح فسادهم ، والقيام بمهاتهم ، وحوائجهم ، ضمن ما هو قائم بصدد البدع والضلالات، وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ، ويردهم الى الدين الاول العتيق جهد امكانه؟ والا فأين حقيقة الدين العتيق؟

فهو مع هذا كله قائم بجملة ذلك وحده ، وهو منفرد بين أهل زمانه ، قليل ناصره ، كثير خاذله ، وحاسده ، والشامت فيه !!

فمثل هذا الرجل في هذا الزمان، وقيامه بهذا الامر العظيم الخطير فيه. أيقال له : لم ترد على الاحمدية؟ لم لا تعدل في القسمة؟ لم تدخل على الامراء ؟ لم تقرب زيدا وعمرا؟

أفلا يستحي العبد من الله ؟ يذكر مثل هذه الجزئيات في مقابلة هذا العبء الثقيل؟ ولو حوقق الرجل على هذه الجزئيات وجد عنده نصوص صحيحة ، ومقاصد صحيحة ونيات صحيحة !! تغيب عن الضعفاء العقول ، بل عن الكمل منهم ، حتى يسمعوها .

أما رده على الطائفة الفلانية ايها المفرط التائه ، الذي لا يدري ما يقول . أفيقوم دين محمد بن عبد الله الذي أنزل من السماء ، الا بالطعن على هؤلاء ؟ وكيف يظهر الحق ان لم يخذل الباطل؟ لا يقول مثل هذا الا تائه ، أو مسن أو حاسد .

وكذلك القسمة للرجل ، في ذلك اجتهاد صحيح . ونظر الى مصالح تترتب على اعطاء قوم دون قوم ، كما خص الرسول ﷺ الطلقاء بمائة من الابل ، وحرم الأنصار! حتى قال منهم احداثهم شيئاً في ذلك . لاذووا أحلامهم ، وفيها قام ذو الخويصرة فقال ما قال، وأما دخوله على الأمراء، فلو لم يكن ، كيف كان شم الأمراء رائحة الدين العتيق الخاص ؟ ولو فتش المفتش، لوجد هذه الكيفية التي عندهم من رائحة الدين، ومعرفة المنافقين، انما اقتبسوها من صاحبكم .

وخاتمة الخير على عمله، وأن يرده عن انحرافه الى نهج الصواب ، بحيث لا يبقى معشره يعيبه بعلمه ، وتصنيفه ، من اولى العقول والأحكام ونستغفر الله العظيم ، من الخطأ والزلل، في القول والعمل . والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ا هـ [1] .

(١) تمت هذه الرسالة التي سماها مؤلفها الشيخ علم الدين رحمه الله التذكرة والاغيار، والانتصار للابرار وقد نقلناها من كتاب العقود الدرية لابن عبد الهادي من ص ٢٩١ الى ٣٢١

الباب العاشر

ابن تيمية : مصنفاته وتآليفه

مصنفات ابن تيمية تربو على ثلاثمائة مجلد وقد وزعت مصنفاته على سني عمره فوجد انها تبلغ في كل يوم أربعة كراريس ، ولا غرر في ذلك فقد كتب الرسالة الحموية وهي تقع في نحو سبعين صفحة من القطع المتوسط في جلسة بين الظهر والعصر كما قال الذهبي . وكتب اربعة مجلدات كاملة في الرد على الاخنائي المالكي في مسألة شد الرحال الى زيارة القبور وأربع مجلدات على سؤال واحد سماه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) . وهذه طائفة من تصانيفه كما ذكرها ابن رجب .

قال :

واما تصانيفه رحمه الله : فهي أشهر من أن تذكر ، واعرف من ان تنكر . سارت مسير الشمس في الأقطار ، وامتلأت بها البلاد والأمصار . قد جاوزت حد الكثرة ، فلا يمكن احد حصرها ، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها ، ولا ذكرها .

ولنذكر نبذة من أسماء أعيان المصنفات الكبار : كتاب «الايمان» مجلد، كتاب «الاستقامة» مجلدان «جواب الاعتراضات المصرية على الفتاوي الحموية» أربع مجلدات ، كتاب «تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» في ست مجلدات كبار ، كتاب «المحنة المصرية» مجلدان «المسائل الاسكندرانية» مجلد «الفتاوى المصرية» سبع مجلدات .

وكل هذه التصانيف ما عدا كتاب «الايمان» كتبه وهو بمصر في مدة سبع سنين صنفها في السجن . وكتب معها اكثر من مائة لفة ورق أيضاً ، كتاب «درء تعارض العقل والنقل» أربع مجلدات كبار . والجواب عما أورده للشيخ كمال الدين بن الشريشي على هذا الكتاب ، نحو مجلد كتاب «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» أربع مجلدات «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» مجلدان « شرح أول المحصل للرازي» مجلد «شرح بضعة عشر مسألة من الأربعين للرازي» مجلدان «الرد على المنطق» مجلد كبير « الرد على البكري في مسألة الاستغاثة» مجلد «الرد على أهل كسروان الروافض» مجلدان «الصفدية» ، « جواب من قال : ان معجزات الأنبياء قوى نفسانية» مجلد «الهلاونية» مجلد «شرح عقيدة الأصبهاني» مجلد «شرح العمدة» للشيخ موفق الدين . كتب منه نحو أربع مجلدات «تعليقة على المحرر» في الفقه لجده عدة مجلدات «الصارم المساول على شاتم الرسول مجلد ، «بيان الدليل على بطلان التحليل» مجلد «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم» مجلد «التحرير في مسألة حفير» مجلد في مسألة من القسمة ، كتبها اعتراضا على الخوى في حادثة حكم فيها «الرد الكبير على من اعترض عليه في مسألة الحلف بالطلاق» ثلاث مجلدات ، كتاب «تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان» مجلد كبير «الرد على الأخنائي في مسألة الزيارة» مجلد . وأما القواعد المتوسطة والصغار وأجوبة الفتاوى : فلا يمكن الاحاطة بها ، لكثرتها وانتشارها وتفرقها . ومن أشهرها «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» مجلد لطيف « الفرقان بين الحق والبطلان» مجلد لطيف «الفرقان بين الطلاق والأيمان» مجلد لطيف «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية» مجلد لطيف «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» مجلد لطيف .

● السبب في اكثاره في الأصول : ـ

قال الحافظ ابو حفص عمر بن علي البزار المتوفي سنة ٧٤٩ ـ تلميذ شيخ الاسلام .

الزبن ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤

ولقد اكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلا عن غيره من بقية العلوم فسألته عن سبب ذلك والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الافتاء . فقال لي ما معناه : الفروع أمرها قريب ، فاذا قلد المسلم فيها احد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه . واما الأصول فاني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة، والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسلمية وغيرهم من اهل البدع قد تجاذبوا فيها ، بأزمة الضلال ، وبان لي أن كثيرا منهم انما قصد ابطال الشريعة المقدسة المحمدية ، الظاهرة على كل دين ، العلية . وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة ، مقبلا على مقولاتهم الا وقد تزندق أوصار على غير يقين في دينه أو اعتقاده . فلما رأيت / الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم . وزيف دلائلهم ذبا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية . ولا والله ما رأيت فيهم احدا ممن صنف في هذا الشان، وادعى علو المقام، الا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الاسلام . وسبب ذلك اعاضه عن الحق الواضح المبين ، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه ضرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات ، وانما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضا عن غيرها اصلا ورأساً . فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم فتخبط حتى خبط فيها خبط [1] عشواء، ولم يفرق بين الحق والباطل، والا فالله أعظم لطفاً

---

(١) الاعلام العلية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية للحافظ البزار بتحقيق دكتور صلاح الدين المنجد ص ٣٤ ، ٣٥ .

بعباده من[1] أن لا يجعل لهم عقلا يقبل الحق ويثبته ، ويبطل الباطل وينفيه . لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال . وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانا يزن به العبد الواردات فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق ، وما هو من قبيل الباطل . ولم يبعث الله الرسل الا الى ذوي العقل ، ولم يقع التكليف الا مع وجوده ، فكيف يقال انه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم، لكن (من لم يجعل الله نوراً فما له من نور)[2] .

قال الشيخ الامام قدس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي / الى الأصول ، والزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية » .



(١) اخرجه مسلم عن ابي سعيد وابي هريرة معا .

(٢) متفق عليه .

الباب الحادي عشر

تحقيق القول في مسألة خلود الجنة والنار

ذكرت في المقدمة ان السبب الذي حداني ان اجمع هذه الرسالة هو اتهام ذلك الاستاذ للامام شيخ الاسلام ابن تيمية انه خالف الاجماع لأنه قال بفناء نار الآخرة .

والحقيقة ان الامام ابن تيمية نفسه ليس له قول صريح في هذا بل أقواله في الفتاوي ان الجنة والنار مخلوقتان باقيتان لا تفنيان ، وأما الذي قال صراحة بفناء النار فهو الامام ابن القيم تلميذ الشيخ ابن تيمية وقد كتب في هذا فصلا مطولا جدا في كتابه الفريد (حادي الأرواح الى بلاد الأفراح) وقد استدل لقوله الذي رجحه هذا بأنه هو المنقول عن عامة الصحابة وجمهور التابعين ، وانه لا يذكر للصحابة قول مخالف وقد كتب أيضا ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في هذه المسألة فصلا في شرح العقيدة الطحاوية بين فيه مذاهب المسلمين في هذه القضية حيث يقول :

وأما أبدية النار ودوامها ، فللناس في ذلك ثمانية أقوال : احدهما : ان من دخلها لا يخرج منها ابدا الآباد ، وهذا قول الخوارج والمعتزلة . والثاني : أن أهلها يعذبون فيها ، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي !! الثالث : أن

أهلها يعذبون فيها الى وقت محدود ، ثم يخرجون منها ، ويخلفهم فيها قوم آخرون ، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه ، وقد أكذبهم الله تعالى ، فقال عز من قائل : (وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) البقرة : ٨٠ ـ ٨١ . الرابع : يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد. الخامس : أنها تفني نفسها بنفسها ، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاءه !! وهذا قول الجهم وشيعته ، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار ، كما تقدم . السادس : تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادا ، لا يحسون بألم ، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم . السابع : أن الله يخرج منها من يشاء ، كما ورد في الحديث ، ثم يبقيها شيئا ، ثم يفنيها ، فانه جعل لها أمدا تنتهي اليه . الثامن : أن الله تعالى يخرج منها من شاء ، كما ورد في السنة ، ويبقي فيها الكفار ، بقاء لا ، كما قال الشيخ رحمه الله . وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان .

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها .

فمن أدلة القول الاول منها : قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) الانعام : ١٢٨ . وقوله تعالى : (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) هود : ١٠٦ ـ ١٠٧ . ولم يأت بعد هذين الاستثنائين ما اتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة ، وهو قوله : (عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ . وقوله تعالى : (لابثين فيها أحقاباً) النبأ : ٢٣ . وهذا القول ، أعني القول بفناء النار دون الجنة ـ منقول عن عمر ، وابن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وغيرهم . وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور ، بسنده الى عمر رضي الله عنه ، أنه قال : «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه» [1]، ذكر

(١) قال ناصر الدين الألباني ضعيف ، لانه من روايته عن الحسن قال : قال عمر . والحسن لم يدرك عمر رضي الله عنه . وقال ابن القيم في « حادي الارواح » (٧١/٢ طبع الكردي) عقبه : « والحسن لم يسمع من عمر . ومع ذلك فقد حاول تقويته بكلام خطابي ، لا غناء فيه (راجع المستدرك) وقد روي نحوة عن عبد الله بن عمرو موقوفا بسند ضعيف ، وعن ابي امامه مرفوعا بسند فيه تالف ، وقد تكلمت عليه في « سلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة » ضمن المائة السابعة .

ذلك في تفسير قوله تعالى : (لابثين فيها أحقاباً) النبأ : ٢٣ . قالوا : والنار موجب غضبه ، والجنة موجب رحمته . وقد قال ﷺ : « لما قضى الله الخلق ، كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »[١] . وفي رواية : « تغلب غضبي » . رواه البخاري في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قالوا : والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه : (عذاب يوم عظيم) الانعام : ١٥ . و (أليم) هود : ٢٦. و(عقيم) الحج : ٥٥. / ولم يخبر / ولا في موضع احد عن النعيم أنه نعيم يوم . وقد قال تعالى : (عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء) الاعراف : ١٥٥ . وقال تعالى حكاية عن الملائكة : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) غافر ٧ فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين ، فلو بقوا في العذاب لا الى غاية لم تسعهم رحمته . وقد ثبت في «الصحيح» تقدير يوم القيامة بخمسين الف سنة[٢] ، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم ، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له . وأما أنه يخلق خلقا ينعم عليهم ويحسن اليهم نعيما سرمدا ، فمن مقتضى الحكمة . والاحسان مراد لذاته ، والانتقام مراد بالعرض . قالوا : وما ورد من الخلود فيها ، والتأييد ، وعدم الخروج ، وأن عذابها مقيم ، وأنه غرام - : كله حق مسلم، لا نزاع فيه ، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية ، وانما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد . ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

ومن ادلة القائلين ببقائها وعدم فنائها : قوله : (ولهم عذاب مقيم) المائدة : ٤٠ (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) الزخرف : ٤٣ . (فلن نزيدكم الا عذاباً) النبأ : ٣٠ (خالدين فيها أبداً) البينة : ٨ (وما هم منها بمخرجين)[٣] الحجر : ٤٨ . (وما هم بخارجين من النار) البقرة : ١٦٧

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم في حديث لابي هريرة في عقوبة مانع الزكاة يوم القيامة . وفي الباب عن ابن عمرو عند الحاكم (٥٧٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) هذه الآية في اهل الجنة، فلعله اراد آية المائدة (وما هم بخارجين منها) .

(لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الاعراف : ٤٠ (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر : ٣٦ .
(ان عذابها كان غراما) الفرقان : ٦٥ ، أي مقيما لازما . وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال : لا اله الا الله : وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ، ولم يختص الخروج بأهل الايمان . وبقاء الجنة والنار ليس لذاتها ، بل بابقاء الله لهما» . ا هـ منعه بلفظه .

وهكذا يتبين من هذا النقل ان علماء أهل السنة في هذه المسألة على قولين وان المنقول عن بعض خيار الصحابة هو القول بفناء النار في نهاية الأمر ، دون الجنة .فانهم مجمعون على بقائها بقاءً سرمديا .

● ولأهمية البحث الذي كتبه ابن القيم رحمه الله حول هذه القضية ننقله بنصوصه من كتابه حادي الارواح ليتبين لقارىء هذه الرسالة منزلة هذين الامامين في العلم الشرعي وتحري الحق ومعرفة الدليل والوقوف عند اقوال السلف وانها لا يقولان قولا لم يسبقا اليه وان ابن القيم تلميذ شيخ الاسلام انما هو قبس من نور شيخ الاسلام وشعلة من ناره ولذلك قال ابن حجر رحمه الله لو لم يكن من فضل لابن تيمية الا تلميذه ابن القيم لكفى : والآن الى تحقيق ابن القيم الفريد في مسألة خلود الجنة والنار .

علماً ان جامع هذه الرسالة لا يذهب الى ما ذهب اليه ابن القيم في المسألة وانما ننقل ما ذكره ابن القيم هنا لبيان أنه متأول للنصوص القرآنية وناقل عن سلف له ، وليس متحكماً برأيه وهواه . ولكننا مع ذلك نرى ان الأسلم هو الايمان بخلود النار ايضاً خلوداً سرمدياً لأن هذا هو الذي يتماشى مع ظاهر النصوص ، ولا يجوز لنا التحول عن هذا الظاهر الا بدليل شرعي ظاهر قوي ، ويبدو ان هذا الدليل ليس موجوداً هنا . والله تعالى اعلم وعلى كل حال فهذه المسألة لا ينبني عليها عمل ومن الافضل ترك تفصيل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٤٨٣ ـ ٤٨٦ .

القول فيها .. وهذا هو ما حققه ابن القيم في هذه المسألة :

قال : الباب السابع والستون

في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد :

وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ أخبر به قال تعالى : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) [1] أي مقطوع . ولا تنافى بين هذا وبين قوله الا ما شاء ربك. واختلف السلف في هذا الاستثناء . فقال معمر عن الضحاك : هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة يقول سبحانه : انهم خالدون في الجنة ما دامت السموات والأرض الا مدة مكثهم في النار .

قلت : وهذا يحتمل أمرين :

احدهما : أن يكون الاخبار عن الذين سعدوا وقع عن قوم مخصوصين وهم هؤلاء .

والثاني : وهو الأظهر أن يكون وقع عن جملة السعداء والتخصيص بالمذكورين هو في الاستثناء وما دل عليه . وأحسن من هذين التقديرين ان ترد المشيئة الى الجميع حيث لم يكونوا في الجنة في الموقف . وعلى هذا فلا يبقى في الآية تخصيص . وقالت فرقة أخرى : هو استثناء استثناه الرب تعالى ولا يفعله كما تقول : والله لأضربنك الا ان أرى غير ذلك وانت لا تراه . بل تجزم بضربه .

وقالت فرقة أخرى : العرب اذا استثنت شيئاً كثيراً مع مثله ومع ما هو اكثر منه ، كان معنى الا في ذلك ومعنى الواو سواء والمعنى على هذا سوى ما شاء الله

---

(١) سورة هود آية ١٠٨ (٢٢ ـ حادي الأرواح)

من الزيادة مدة دوام السموات والأرض . هـذا قول الفراء وسيبويـه : يجعل الا بمعنى سوى قـالـوا : ونظير ذلـك أن تقـول : لي عليـك الف الا الالفين الـذين قبلهـا اي سوى الالفين . قـال ابن جرير : وهـذا هو أحب الوجهين الى ، لأن الله تعالى لا خلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله (عطاء غير مجذوذ) .

قالوا : ونظير أن نقول : أسكنتـك داري حولا الا مـا شئت أي سوى مـا شئت من الزيادة عليه .

وقالت فرقة أخرى : هذا الاستثناء انما هو مدة احتباسهم عن الجنـة مـا بين الموت والبعث وهو البرزخ الى ان يصيروا الى الجنـة ثم هو خلـود الأبـد فلم يغيبوا عن الجنة الا بمقدار اقـامتهم في البرزخ . وقـالت فرقـة اخرى : العزيمـة قد وقعت لهم من الله بـالخلود الـدائم الا ان يشـاء الله خلاف ذلـك اعلامـا لهم بأنهم مع خلودهم في مشيئتـه وهـذا كما قـال لنبيـه (ولئن شئنـا لنـذهبن بـالـذي أوحينا اليك) [1]وقوله (فان يشأ الله يختم على قلبـك) [2]وقولـه (قل لو شـاء الله ما تلوته عليكم) [3]ونظائره وأخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته ما شـاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقـالت فرقـة أخرى : المراد بمـدة دوام السموات والأرض في هـذا العـالم فأخبر سبحانه أنهم خالدون في الجنة مدة دوام السموات والأرض الا ما شـاء الله ان يزيـدهم عليـه . ولعل هـذا قول من قـال ان الا بمعنى سـوى ولكن اختلف عبارته وهذا اختيار ابن قتيبة . قال : المعنى خالدين فيها مدة العـالم سوى مـا شاء أن يزيدهم من الخلود على مـدة العـالم وقـالت فرقـة أخرى : مـا بمعنى من قوله (فانكحا ما طاب لكم من النساء) [4]والمعنى الا من شـاء ربـك ان يـدخلـه النـار بـذنـوبـه من السعـداء والفرق بين هـذا القـول وبين أول الاقـوال : أن الاستثناء على ذلك القول من المدة وعلى هذا القول من الأعيان .

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٦

(٢) سورة الشورى آية ٢٤

(٣) سورة يونس آية ١٦

(٤) سورة النساء آية ٣

وقالت فرقة أخرى : المراد بالسموات والارض سماء الجنة وأرضها، وهما باقيتان أبدا وقوله :(الا ما شاء ربك) ان كانت ما بمعنى من فهم الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها ، وان كانت بمعنى الوقت فهو مدة احتسابهم في البرزخ والموقف ، قال الجعفي : سألت عبد الله بن وهب عن هذا الاستثناء ، فقال سمعت فيه أنه قدر وقوفهم في الموقف يوم القيامة الى ان يقضي بين الناس .

وقالت فرقة أخرى : الاستثناء راجع الى مدة لبثهم في الدنيا وهذه الأقوال متقاربة ويمكن الجمع بينها بأن يقال أخبر سبحانه عن خلودهم في الجنة كل وقت الا وقتا يشاء ان لا يكونوا فيها وذلك يتناول وقت كونهم في الدنيا وفي البرزخ وفي موقف القيامة وعلى الصراط ، وكون بعضهم في النار مدة وعلى كل تقدير فهذه الآية من المتشابه وقوله فيها (عطاء غير مجذوذ) محكم وكذلك قوله (ان هذا لرزقنا ماله من نفاد) وقوله (أكلها دائم وظلها) وقوله (وما هم منها بمخرجين) .

وقد أكد الله سبحانه خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم لا يذقون فيها الموت الا الموتة الأولى . وهذا الاستثناء منقطع واذا ضممته الى الاستثناء في قوله (الا ما شاء ربك) تبين لك المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية . وذلك مفارقة للجنة تقدم على خلودهم فيها . وبالله التوفيق .

وقد تقدم قول النبي ﷺ « من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت» وقوله «ينادي مناد يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا ابداً ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً وأن تحيوا فلا تموتوا ابدا» .

وثبت في الصحيحين من حديث ابي سعيد الخدري عن النبي ﷺ انه قال : « يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة ثم يقال : يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين ويقال : يا أهل النار فيطلعون فرحين فيقال هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت .

فصـــــل

وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة اقوال :

أحدهما : أن الجنة والنار فانيتان غير ابديتين بل كما هما حادثتان فهما فانيتان .

والقول الثاني : انهما باقيتان دائمتان لا يفنيان أبدا .

والقول الثالث : ان الجنة باقية أبدية والنار فانية، ونحن نذكر هذه الاقوال وما قابلها وما احتج به ارباب كل قول ، ونرد ما خالف كتاب الله وسنة رسوله . فأما القول بفنائهما فهو قول قاله جهم بن صفوان امام المعطلة الجهمية ، وليس له فيه سلف قط من الصحابة ولا من التابعين ولا احد من أئمة الاسلام ولا قال به أحد من أهل السنة . وهذا القول مما انكره عليه وعلى أتباعه أئمة الاسلام وكفروهم به وصاحوا بهم من أقطار الأرض ، كما ذكره عبد الله ابن الامام أحمد في كتاب السنة عن خارجة بن مصعب أنه قال : كفرت الجهمية بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ، بقول الله سبحانه وتعالى (أكلها دائم وظلها)[1] وهم يقولون لا يدوم ، وبقوله الله تعالى (ان هذا لرزقنا ماله من نفاذ) [2] وهم يقولون ينفد ، ويقول الله عز وجل (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) [3] .

قال شيخ الاسلام : وهذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام التي استدلوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يحل من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم ، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنع في المستقبل فداوم الفعل ممتع عنده على الرب تبارك وتعالى في المستقبل ، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي .

وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل ، لكن قال : ان

---

(١) سورة الرعد آية ٣٥

(٢) سورة ص آية ٥٤

(٣) سورة النحل آية ٩٦

هذا يقتضي فناء الحركات لكونها متعاقبة شيئاً بعد شيء . فقـال بفنـاء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقـدر أحـد منهم على حركـة ، وزعمت فرقة ممن وافقهم على امتناع حوادث لا نهاية لها أن هـذا القول مقتضى العقل ، لكن لما جاء السمع ببقاء الجنـة والنـار قلنـا بـذلـك ، وكأن هؤلاء لم يعلمون مـا كان ممتعـاً في العقل لا يجيء الشرع بوقـوعـه اذ يستحيـل عليـه أن يخبر بوجـودهـا مـا هـو ممتنـع في العقـل وكأنهم لم يفرقـوا بين محـالات العقـول ومجازاتها ، فالسمع يجيء بـالثـاني لا بـالأول فـالسمع يجيء بمـا يعجز العقل عن إدراكه ولا يستقل به ولا يجيء بما يعلم العقل إحالته .

والأكثرون الذين وافقوا جهما وابا الهذيل على هذا الأصل فرقوا بين المـاضي والمستقبل ، وقالوا : الماضي قـد دخل في الوجود بخلاف المستقبل ، والممتنع انمـا هو دخول ما لا يتناهى في الوجود لا تقدير دخولـه شيئـاً بعـد شيء . قـالوا : وهذا نظير أن يقول القائل : لا أعطيك درهماً الا واعطيـك بعـده درهمـاً آخر فهذا ممكن ، والأول نظير أن يقول : لا أعطيك درهماً الا واعطيك قبله درهماً فهـذا محـال ، وهؤلاء عنـدهم وجود مـالا يتنـاهى في المـاضي محـال ووجوده في المستقبل واجب ، ونازعهم في ذلك آخرون فقالوا : بل الأمر في المـاضي كهو في المستقبـل ولا فرق بينهما ، بـل المـاضي والاستقبـال أمر نسبي فكل مـا يكـون مستقبلا يصير ماضياً وكل مـاض فقـد كان مستقبلا فلا يعقل امكان الـدوام في أحد الطرفين واحالته في الطرف الآخر .

قالوا : وهذه مسألة دوام فاعلية الرب تبارك وتعالى وهو لم يزل رباً قـادراً فعالا فانه لم يزل علياً قديراً ، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاتـه ، ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته من غير تجديد شيء وليس للازم حـد محـدود حتى يصير الفعل ممكناً عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعـاً عليـه فهـذا القول تصوره كاف في الجـزم بفســاده ويكفي في فســاده أن الـوقت الــذي انقلب فيــه من الاحالة الذاتية الى الامكان الذاتي اما أن يصح أن يفرض قبله وقت يمكن فيـه الفعل أو لا يصح .

فـان قلتم لا يصح كان هـذا تحكمـا غير معقول وهو من جنس الهوس ، وان قلتم يصح : قيل وكذلك ما يفرض قبلـه لا الى غـايـة ، فمـا من زمن محقق أو

مقدار الا والفعل ممكن فيه وهو صفة كال واحسان ومتعلق حمد رب تعالى وربوبيته وملكه وهو لم يزل رباً حميداً ملكاً قادراً لم تتجدد له هذه الأوصاف كما أنه لم يزل حياً مريداً عليما. والحياة والارادة والعلم والقدرة تقضي آثارها ومتعلقاتها ، فكيف يعقل حي قدير عليم مريد ليس له مانع ولا قاهر يقهره يستحيل عليه أن يفعل شيئاً البتة ؟

وكيف يجعل هذا أصل من أصول الدين ويجعل معيارا على ما أخبر الله به ورسوله ويفرق به بين جائزات العقول ومحالاتها ؟ فإذا كان هذا شأن الميزان فكيف يستقيم الموزون به ، وأما قول من فرق بأن الماضي قد دخل في الوجود دون المستقبل فكلام لا تحقيق وراءه ، فان الذي يحضره الوجود من الحركات هو المتناهى ثم يعدم فيصير ماضياً ، كما معدوما لما كان مستقبلا فوجوده بين عدمين وكلما انتقضت جملة حدثت بعدها جملة أخرى ، فالذي صار ماضيا هو بعينه الذي كان مستقبلا فان الدليل على امتناع مالا يتناهى شيئاً قبل شيء فهو بعينه ، دل على امتناعه شيئاً بعد شيء .

وأما تفريقكم بقولكم المستقبل نظير قوله : ما أعطيك درهماً الا وأعطيك قبله درهما ، فهذا ممكن . والماضي نظير قوله ما أعطيك درهما الا واعطيك قبله درهما ، فهذا الفرق فيه تلبيس لا يخفى وليس بنظير ما نحن فيه بل نظيره أن يقول ما أعطيك درهماً الا وقد تقدم مني اعطاء درهم قبله . فهذا ممكن الدوام في الماضي على حد امكانه في المستقبل ولا فرق في العقل الصحيح بينهما البتة ، ولما لم يجد الجهم وأبو الهذيل وأتباعهما بين الأمرين فرقا قالوا : بوجوب تناهي الحركات في المستقبل كما يجب ابتداؤها عندهم في الماضي .

وقال أهل الحديث بل هما سواء في الامكان والوقوع ولم يزل الرب سبحانه وتعالى فعالا لما يريد ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال منعوتاً بنعوت الجلال . وليس المتمكن من الفعل كل وقت كالذي لا يمكنه الفعل الا في وقت معين وليس من يخلق كمن لا يخلق، ومن يحسن كمن لا يحسن، ومن يدبر الأمر كمن لا يدبر ، وأي كال في أن يكون رب العالمين معطلا عن الفعل في مدة مقدرة أو محققة لا تتناهى يستحيل منه الفعل وحقيقة ذلك أنه لا يقدر عليه .

وان أبيتم هذا الاطلاق وقلتم ان المحال لا يوصف بكونه غير مقدور عليه ،

فجعتم بين محالين الحكم بإباحة الفعل من غير موجب لاحالته وانقلابه من الاحالة الذاتية الى الامكان الذاتي من غير تجدد سبب وزعمتم أن هذا هو الأصل الذي تثبتون به وجود الصانع وحدوث العالم وقيامة الأبدان فجنيتم على العقل والشرع ، والرب تعالى لم ينزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته ولم يزل فعالا لما يريد ولم يزل رباً محسناً .

والمقصود : أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين . والذين قالوه انما تلقوه عن قياس فاسد كما اشتبه أصله على كثير من الناس فاعتقدوه حقا وبنوا عليه القول بخلق القرآن ونفي الصفات وقد دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى ولا تنقطع بآخر ولا تحد بأول قال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا)[1]

وقال تعالى : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم)[2] فأخبر عن عدم نفاذ كلماته لعزته وحكمته وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون الا كذلك .

وذكر ابن ابي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال : سمعت الربيع بن أنس يقول ان مثل علم العباد كلهم في علم الله عز وجل كقطرة من هذه البحور كلها وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ـ الآية .

وقوله (قل لو كان البحر مداداً ـ الآية) يقول سبحانه وتعالى قل لو كان البحر مداداً لكلمات الله والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي بل هو كما أثنى على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان آية ٢٧ .

يقول ، ثم ان مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

فصـــــل

وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الاسلام : فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين ، وقلت : ههنا أقوال سبعة :

احدها : أن من دخلها لا يخرج منها أبداً بل من دخلها خلد فيها أبد الآباد باذن الله ، وهذا قول الخوارج والمعتزلة .

والثاني : أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم ، وهذا قول امام الاتحادية ابن عربي الطائي .

قال في فصوصه : الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد والحضرة الالهية تطلب الثناء المحمود بالذات ، فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) [1] لم يقل وعيده بل قال (ونتجاوز عن سيئاتهم) [2] مع أنه توعد على ذلك ، وأثنى على اسماعيل بأنه كان صادق الوعد وقد زال الامكان في حق الحق من طلب المرجح :

فلم يبق الا صادق الوعد وحده ... وما لوعيد الحق عين تعاين
ان دخلوا دار الشقاء فانهم ... على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صاين

---

(١) سورة ابراهيم آية ٤٧ .

(٢) سورة الأحقاف آية ١٦ .

وهذا في طرف والمعتزلة الذين يقولون لا يجوز على الله ان يخالف وعيده بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف ، فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلاً ، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلاً . والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله عز وجل .

الثالث : قول من يقول ان اهلها يعذبون فيها الى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون ، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ فأكذبهم الله تعالى في القرآن فيه :

فقال تعالى : (وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون ☆ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[1] .

وقال تعالى : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم . ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ☆ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون)[2] .

فهذا القول انما هو قول اعداء الله اليهود فهم شيوخ أربابه والقائلين به . وقد دل القرآن والسنة واجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده .

قال تعالى : (وما هم بخارجين من النار) وقال : (وما هم منها بمخرجين) وقال : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

وقال تعالى : (كلما أرادوا أن يجرجوا منها أعيدوا فيها) وقال تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)[3]وقال تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط)[4] .

وهذا أبلغ ما يكون في الاخبار عن استحالة دخولهم الجنة .

الرابع : قول من يقول : يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٨٠ و ٨١ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٣ و ٢٤ .

(٣) سورة فاطر آية ٣٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ٤٠ .

أحد يعذب . حكاه شيخ الاسلام . والقرآن والسنة أيضاً يردان على هـذا القول كما تقدم .

الخامس : قول من يقول : بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعـد أن لم تكن : وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبـديتـه . وهـذا قول جهم بن صفوان وشيعتـه ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار .

السـادس : قـول من يقـول تفنى حيـاتهم وحركاتهم ويصيرون جمـاداً لا يتحركون ولا يحسون بـألم . وهـذا قول أبي الهـذيل العلاف امـام المعتزلـة طرداً لامتناع حوادث لا نهاية لها . والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم .

السابع : قول من يقول : بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعـالى ، فـإنـه جعل لها أمداً تنتهي اليه تفنى ويزول عذابها .

قـال شيخ الاسـلام : وقـد نقـل هـذا القـول عن عمر وابن مسعـود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحـديث في تفسيره المشهور حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمـة عن ثـابت عن الحسن قال قال عمر : «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عـالج ، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه» .

وقال : حدثنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميـد عن الحسن أن عمر ابن الخطاب قال : « لو لبث أهل النار في النار عـدد رمل عـالج لكان لهم يوم يخرجون فيه» ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : (لابثين فيها أحقابـاً) [1] فقـد رواه عبد وهو من الأئمة الحفـاظ وعلمـاء السنـة عن هـذين الجليلين سليمـان بن حرب وحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة وحسبـك بـه وحمـاد يرويـه عن ثابت وحميد وكلاهما يرويه عن الحسن ، وحسبك بهذا الإسناد جلالة .

والحسن وان لم يسمع من عمر ، فـانمـا رواه عن بعض التـابعين ولو لم يصـح عنده ذلك عن عمر لما جزم به . وقال : عمر بن الخطاب، ولو قدر أنه لم يحفـظ عن عمر فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين لـه بـالانكار والرد مع انهم يتكرون على من خالف السنة بدون هذا فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البـدع

---

(١) سورة النبأ آية ٢٣ .

المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله واجماع الأئمة، لكانوا أول منكر له .

قال : ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه انما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها ، وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريباً منه .

ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم ، كما قال النبي ﷺ،أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : (خالدين فيها) وقوله : (وما هم بمخرجين)[1] .

بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافه ، لكن اذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق ناراً ولم يبق فيها عذاب قال أرباب هذا القول :

وفي تفسير على بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس في قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) قال : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

قالوا : وهذا الوعيد في هذه الآية مختصاً بأهل القبلة فإنه سبحانه قال : «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون)[2] .

وأولياء الجن من الانس يدخل فيها الكفار قطعاً فانهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين ، كما قال تعالى : (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) .

وقال تعالى : (انه ليس سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)[3] .

وقال تعالى : (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . واخوانهم يمدونهم في الغى ثم لا يقصرون)[4] .

---

(١) سورة الحجر آية ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ١٢٨ ـ ١٢٩

(٣) سورة النحل الآيتان ٩٩ و ١٠٠

(٤) سورة الاعراف آية ٢٠١

وقال تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو)[1].

وقال تعالى : (فقاتلوا أولياء الشيطان) .

وقال تعالى : (أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون)[2].

وقال تعالى : (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون) والاستثناء وقع في الآية التي أخبرت عن دخول أولياء الشياطين النار .

فمن ههنا قال ابن عباس : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله قالوا : وقول من قال ان «الا» بمعنى سوى أي ما شاء الله أن يزدهم من أنواع العذاب وزمنه لا تخفى منافرته للمستثنى والمستثنى منه ، وان الذي يفهمه المخاطب مخالفة ما بعد «الا» لما قبلها .

قالوا : وقول من قال انه لاخراج ما قبل دخولهم اليها من الزمان كزمان البرزخ والموقف ومدة الدنيا أيضاً، لا يساعد على وجه الكلام، فانه استثناء من جملة خبرية مضمونها أنهم اذا دخلوا النار لبثوا فيها مدة دوام السموات والأرض الا ما شاء الله .

وليس المراد الاستثناء قبل الدخول هذا مالا يفهمه المخاطب الا ترى سبحانه يخاطبهم بهذا في النار حين يقولون (ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) فيقول لهم حينئذ : (النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله) .

وفي قوله : (ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي أجلت لنا) نوع اعتراف واستسلام وتحسر أي اسمتع الجن بنا واستمتعنا بهم ، فاشتركنا في الشرك ودواعيه وأسبابه ، وآثرنا الاستماع على طاعتك وطاعة رسلك ، وانقضت آجالنا وذهبت أعمارنا في ذلك ولم نكتسب فيها رضاك . وانما كان غاية أمرنا في مدة آجالنا استمتاع بعضنا ببعض .

---

(١) سورة الكهف آية ٥٠

(٢) سورة المجادلة آية ١٩ .

سورة الأنعام آية ١٢١ .

فتأمل ما في هذا من الاعتراف بحقيقة ما هم عليه وكيف بدت لهم تلك الحقيقة ذلك اليوم ، وعلموا ان الذي كانوا فيه في مدة اجالهم هو حظهم من استمتاع بعضهم ببعض ولم يستمتعوا بعبادة ربهم ومعرفته وتوحيده ومحبته وايثار مرضاته .

وهذا من غمط قولهم : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وقوله : (فاعترفوا بذنبهم) وقوله : (فعلموا ان الحق لله) ونظائره والمقصود ان قوله (الا ما شاء الله) عائد الى هؤلاء المذكورين مختصاً بهم أو شاملا لهم ولعصاة الموحدين ، وأما اختصاصه بعصاة المسلمين دون هؤلاء فلا وجه له .

ولما رأت طائفة ضعف هذا القول قالوا : الاستثناء يرجع الى مدة البرزخ والموقف . وقد تبين ضعف هذا القول ، ورأت طائفة أخرى أن الاستثناء يرجع الى نوع آخر من العذاب غير النار .

قالوا : والمعنى أنكم في النار أبداً الا ما شاء الله أن يعذبكم بغيرها وهو الزمهرير وقد قال تعالى (ان جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآبا . لابثين فيها احقاباً)[1] .

وقالوا : والأبد لا يقدر بالأحقاب .

وقد قال ابن مسعود في هذه الآية : ليأتين على جهنم زمان وليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا ، وعن أبي هريرة مثله حكاه البغوي عنهما . ثم قال : ومعناه عند اهل السنة ان ثبت انه لا يبقى فيها أحد من أهل الايمان .

قالوا : قد ثبت ذلك عن أبي هريرة وابن مسعود وعبد الله بن عمر وقد سأل حرب اسحق بن راهويه عن هذه الآية فقال : سألت اسحق قلت قول الله تعالى : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك) فقال : أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن .

حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي حدثنا أبو نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو بعض أصحاب النبي ﷺ قال هذه الآية تأتي

---

(١) سورة النبأ الآيات ٢١ ـ ٢٣

على القرآن كله :(الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) [٢] .

قال المعتمر : قال أتى على كل وعيد في القرآن ، حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي عن شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ، وذلك بعدما يلبثون فيها احقاباً .

حدثنا عبيد الله حدثنا أبي حدثنا شعبة عن يحي بن أيوب عن ابن زرعة عن أبي هريرة قال : ما انا بالذي لا أقول انه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ قوله : (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) الآية [٣] .

قال عبيد الله : كان أصحابنا يقولون يعني به الموحدين حدثنا أبو معن حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله او بعض أصحابه في قوله (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك) [١]قال هذه الآية تأتي على القرآن كله . وقد حكى ابن جرير هذا القول في تفسيره عن جماعة من السلف فقال : وقال آخرون عني بذلك أهل النار وكل من دخلها . ذكر من قال ذلك ثم ذكر الآثار التي نذكرها .

وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن التيمى عن أبيه نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله (الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) قال هذه الآية تأتي على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه قال : وسمعت ابا مجلز يقول : جزاؤه فان شاء الله تجاوز عن عذابه .

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحي انبأنا عبد الرزاق فذكره قال وحدثت عن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك) قال استثنى الله قال أمر الله النار أن

---

(١) سورة هود آية ١٠٧

(٢) سورة هود آية ١٠٦

(٣) سورة هود آية ١٠٧

تأكلهم . قال : وقال ابن مسعود : ليأتين على جهنم زمان تصفق أبوابها ليس فيها احد بعد ما يلبثون فيها احقاباً ، حدثنا ابن حميد حدثنا جرير بيان عن الشعبي قال : جهنم أسرع الدارين عمرانا ، وأسرعها خراباً .

وحكى ابن جرير في ذلك قولا آخر فقال : وقال آخرون أخبرنا الله عز وجل بمشيئته لأهل الجنة فعرفنا معنى ثنياه بقوله «عطاء غير مجذوذ» وأنها لفي الزيادة على مقدار مدة السموات والأرض قالوا : ولم يخبرنا بمشيئته في أهل النار ، وجائز أن تكون مشيئته في الزيادة وجائز أن تكون في النقصان . حدثني يونس انبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : (خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) فقرأ حتى بلغ (عطاء غير مجذوذ) فقال اخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة فقال (عطاء غير مجذوذ) ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار .

وقال ابن مردويه في تفسيره : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا جبير بن عرفة حدثنا يزيد بن مروان الخلال حدثنا أبو خليد حدثنا سفيان يعني الثوري عن عمرو ابن دينار عن جابر قال قرأ رسول الله ﷺ : (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك[1] قال رسول الله ﷺ «ان شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل» . وهذا الحديث يدل على أن الاستثناء انما هو للخروج من النار بعد دخولها خلافا لمن زعم أنه لما قبل الدخول، ولكن انما يدل على اخراج بعضهم من النار، وهذا حق بلا ريب وهو لا ينفي انقطاعها وفناء عذابها واكلها لمن فيها وأنهم يعذبون فيها دائماً ما دامت كذلك وما هم منها بمخرجين ، فالحديث دل على أمرين : أحدهما : ان بعض الأشقياء ان شاء الله أن يخرجهم من النار وهي نار فعل ، وان الاستثناء انما هو فيا بعد دخولها لا فيا قبله وعلى هذا فيكون معنى الاستثناء الا ما شاء ربك من الاشقياء فانهم لا يخلدون فيها ويكون الأشقياء نوعين نوعا يخرجون منها ونوعاً يخلدون فيها فيكونون من الذين شقوا اولا ثم يصيرون من الذين

---

(١) سورة هود الآيتان ١٠٦ و١٠٧

سعدوا فتجتمع لهم الشقاوة والسعادة في وقتين قالوا وقد قال تعالى (ان جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآباً، لابثين فيها احقاباً، لا يذوقون فيها بردا ولا شراباً ، الا حميا وغساقا ، جزاء وفاقا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذاباً) [1] فهذا صريح في وعيد الكفار المكذبين بآياته ولا يقدر الأبد بهذه الأحقاب ولا غيرها كما لا يقدر به القديم . ولهذا قال عبد الله بن عمرو فيما رواه شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عنه «ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها احد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقاباً ».

فصـــل

والذين قطعوا بدوام النار لهم ست طرق :

أحدها : اعتقاد الإجماع فكثير من الناس يعتقدون أن هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه ، وأن الاختلاف فيه حادث وهو من أقوال أهل البدع .

الطريق الثاني : أن القرآن دل على ذلك دلالة قطعية فإنه سبحانه أخبر أنه عذاب مقيم ، وأنه لا يفتر عنهم وأنه لن يزيدهم الا عذاباً وأنهم خالدين فيها أبداً وما هم بخارجين من النار ، وما هم منها بمخرجين ، وأن الله حرم الجنة على الكافرين وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وأنهم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وأن عذابها كان غراما ، أي مقيماً لازماً . قالوا وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره .

الطريق الثالث : أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان دون الكفار ، وأحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين من النار وأن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان .

---

(١) سورة النبأ الآيات ٢١ ـ ٢٨

الطريق الرابع : أن الرسول وقفنا على ذلك وعلمناه من دينه بالضرورة من غير حاجة بنا الى نقل معين ، كما علمنا من دينه دوام الجنة وعدم فنائها .

الطريق الخامس : أن عقائد السلف وأهل السنة مصرحة بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنها لا يفنيان بل هما دائمتان ، وإنما يذكرون فناءهما عن أهل البدع .

الطريق السادس : أن العقل يقضي بخلود الكفار في النار ، وهذا مبنى على قاعدة وهي أن المعاد وثواب النفوس المطيعة وعقوبة النفوس الفاجرة هل هو مما يعلم بالعقل أو لا يعلم الا بالسمع؟ فيه طريقتان لنظار المسلمين ، وكثير منهم يذهب الى أن ذلك يعلم بالعقل مع السمع ، كما دل عليه القرآن في غير موضع ، كإنكاره سبحانه على من زعم أنه يسوى بين الأبرار والفجار ، في المحيا والممات وعلى من زعم أنه خلق خلقه عبثاً ، وأنهم إليه لا يرجعون ، وأنه يتركهم سدى أى لا يثيبهم ولا يعاقبهم ، وذلك يقدح في حكمته وكماله ، وأنه نسبةُ إلى مالا يليق به وربما قرروه بأن النفوس البشرية باقية واعتقاداتها وصفاتها لازمة لها لا تفارقها وإن ندمت عليها ، لما رأت العذاب فلم تندم عليها لقبحها أو كراهة ربها لها ، بل لو فارقها العذاب رجعت كما كانت أولا قال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) [1] .

فهؤلاء قد ذاقوا العذاب وباشروه ولم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم بل خبثها وكفرها قائم بها لم يفارقها بحيث لو ردوا لعادوا كفاراً كما كانوا وهذا يدل على أن دوام تعذيبهم يقضي به العقل كما جاء السمع ، قال أصحاب الفناء الكلام على هذه الطرق يبين الصواب في هذه المسألة .

رد دعوى الاجماع في المسألة :

فأما الطريق الأول فالإجماع الذي ادعيتموه غير معلوم ، وإنما

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ و٢٨ .

يظن الإجماع في هذه المسألة من لم يعرف النزاع ، وقد عرف النزاع فيها قديماً وحديثاً بل لو كلف مدّعي الاجماع أن ينقل عن عشرة من الصحابة فما دونهم الى الواحد أنه قال : إن النار لا تفني أبداً ، لم يجد إلى ذلك سبيلا .

ونحن قد نقلنا عنهم التصريح بخلاف ذلك فما وجدنا عن واحد منهم خلاف ذلك بل التابعون حكوا عنهم هذا وهذا ، قالوا : والاجماع المعتد به نوعان ، متفق عليهما ، ونوع ثالث مختلف فيه ، ولم يوجد واحد منها في هذه المسألة النوع الأول ما يكون معلوما من ضرورة الدين كوجوب أركان الإسلام وتحريم المحرمات الظاهرة .

الثاني : ما ينقل عن أهل الاجتهاد التصريح بحكمه .

الثالث : أن يقول بعضهم القول وينشر في الأمة ولا ينكره أحد ، فأين معكم واحد من هذه الأنواع ، ولو أن قائلا ادعى الإجماع من هذه الطرق واحتج أن الصحابة صح عنهم ولم ينكر أحد منهم عليه لكان أسعد بالإجماع منكم .

قالوا : وأما الطريق الثاني وهو دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها ، فأين في القرآن دليل واحد يدل على ذلك؟ نعم، الذي دل عليه القرآن ان الكفار خالدين في النار أبداً ، وأنهم غير خارجين منها وأنه لا يفتر عنهم عذابها وأنهم لا يموتون فيها وأن عذابهم فيها مقيم ، وأنه غرام لازم لهم وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وليس هذا مورد النزاع وإنما النزاع في أمر آخر وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء؟ وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السنة وانما خالف في ذلك من قد حكينا أقوالهم من اليهود والاتحادية وبعض أهل البدع . وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون منها مع بقائها البتة كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها فالفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

قالوا : وأما الطريق الثالث : وهو مجيء السنة المستفيضة بخروج أهل الكبائر من النار دون أهل الشرك فهي حق لا شك فيه وهي انما تدل على ما قلناه من خروج الموحدين منها وهي دار العذاب لم تفن ويبقى المشركون فيها ما دامت باقية والنصوص دلت على هذا وعلى هذا .

قالوا : وأما الطريق الرابع : وهو أن رسول الله ﷺ وقفنا على ذلك ضرورة فلا ريب أنه من المعلوم من دينه بالضرورة أن الكفار باقون فيها ما دامت باقية هذا معلوم من دينه بالضرورة ، وأما كونها أبدية لا انتهاء لها ولا تفنى كالجنة ، فأين في القرآن والسنة دليل واحد يدل على ذلك .

قالوا : وأما الطريق الخامس وهو أن عقائد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان أبداً . فلا ريب أن القول بفنائها قول أهل البدع من الجهمية والمعتزلة . وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين وأما فناء النار وحدها فقد أوجدنا لكم من قال به من الصحابة وتفريقهم بين الجنة والنار فكيف يكون القول به أقوال أهل البدع مع أنه لا يعرف عن أحد من أهل البدع التفريق بين الدارين ، فقولكم إنه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم وآرائهم واختلافهم .

قالوا : والقول الذي بعد من أقوال أهل البدع ما خالف كتاب الله وسنة رسوله واجماع الأمة ، اما الصحابة أو من بعدهم ، واما قول يوافق الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فلا يعد من أقوال أهل البدع وان دانوا به واعتقدوا فالحق يجب قبوله ممن قاله . والباطل يجب رده على من قاله وكان معاذ بن جبل يقول : « الله حكم قسط هلك المرتابون إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يقرؤه المؤمن والمنافق والمرأة والصبي والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول : قد قرأت القرآن فما اظن أن يتبعوني حتى أبتدع فإن كل بدعة ضلالة واياكم وزيغة الحكيم؟ فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وان المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به فإن على الحق نوراً ، قالوا : وكيف زيغة الحكيم ، قال : هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذه ؟ فاحذروا زيغته ولا تصدنكم عنه فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق ، وان العلم والايمان مكانهما الى يوم القيامة».

والذي اخبر به اهل السنة في عقائدهم هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن أهل النار لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم وانهم خالدون فيها ، ومن ذكر منهم أن النار لا تفنى ابداً فانما قاله لظنه أن بعض أهل البدع قال بفنائها ، ولم يبلغه تلك الآثار التي تقدم ذكرها قالوا : واما حكم العقل بتخليد أهل النار فيها ، فإخبار عن العقل بما ليس عنده ، فإن المسألة من المسائل التي لا تعلم الا بخبر الصادق .

وأما اصل الثواب والعقاب : فهل يعلم بالعقل مع السمع أو لا يعلم الا بالسمع وحده ؟ ففيه قولان لنظار المسلمين من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، والصحيح أن العقل دل على المعاد والثواب والعقاب إجمالا وأما تفصيله فلا يعلم الا بالسمع ودوام الثواب والعقاب ما لا يدل عليه العقل بمجرده ، وانما علم بالسمع وقد دل السمع دلالة قاطعة على دوام ثواب المطيعين ، وأما عقاب العصاة فقد دل السمع أيضاً دلالة قاطعة على انقطاعه في حق الموحدين ، وأما دوامه وانقطاعه في حق الكفار فهذا معترك النزال فمن كان السمع من جانبه فهو أسعد بالصواب . وبالله التوفيق .

الفرق بين دوام الجنة والنار شرعاً وعقلاً :

ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعاً وعقلاً وذلك يظهر من وجوه :

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى أخبر ببقاء نعيم أهل الجنة ودوامه وأنه لا نفاد له ولا انقطاع وأنه غير مجذوذ ، وأما النار فلم يخبر عنها بأكثر من خلود أهلها فيها وعدم خروجهم منها وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأنها مؤصدة عليهم وانهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها وأن عذابها لازم لهم وأنه مقيم عليهم لا يفتر عنهم والفرق بين الخبرين ظاهر .

الوجه الثاني : أن النار قد أخبر سبحانه وتعالى في ثلاث آيات عنها بما يدل على عدم أبديتها . الأولى : قوله سبحانه وتعالى : (قال النار مثواكم

خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربكم حكيم عليم) [1] الثانية : قوله (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) [2] .

الثالثة : قوله : (لابثين فيها أحقابا) [3] ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها لكان حكم الاستثناءين في الموضعين واحداً كيف وفي الآيتين من السياق ما يفرق بين الاستثناءين فإنه قال في أهل النار : (إن ربك فعال لما يريد) [4] فعلمنا أنه سبحانه وتعالى يريد أن يفعل فعلا لم يخبرنا به ، وقال في أهل الجنة : (عطاء غير مجذوذ) [5] فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبداً . فالعذاب مؤقت معلق والنعيم ليس بمؤقت ولا معلق .

الوجه الثالث : أنه قد ثبت أن الجنة لم يدخلها من لم يعمل خيراً قط من المعذبين الذين يخرجهم الله من النار ، وأما النار فلم يدخلها من لم يعمل سوءاً قط ولا يعذب الا من عصاه .

الوجه الرابع : أنه قد ثبت أن الله سبحانه وتعالى ينشيء للجنة خلقاً آخر يوم القيامة يسكنهم إياها ولا يفعل ذلك بالنار ، وأما الحديث الذي قد ورد في صحيح البخاري من قوله : «وأما النار فينشيء الله لها خلقاً آخرين» فغلط وقع من بعض الرواة انقلب عليه الحديث وانما هو ما ساقه البخاري في الباب بنفسه «وأما الجنة فينشيء الله لها خلقاً آخرين» ذكره البخاري رحمه الله مبيناً أن الحديث انقلب لفظه على من رواه بخلاف هذا وهذا ، والمقصود أنه لا تقاس النار بالجنة في التأبيد مع هذه الفروق .

الوجه الخامس : أن الجنة من موجب رحمته ورضاه ، والنار من غضبه وسخطه ، ورحمته سبحانه تغلب غضبه وتسبقه ، كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال : «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش أن رحمتي تغلب غضبي » واذا كان رضاه قد سبق غضبه وهو يغلبه كان التسوية بين ما هو من موجب رضاه وما هو من موجب غضبه ممتنعا .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٨ .

(٢) سورة هود آية ١٠٧

(٣) سورة النبأ آية ٢٣

(٤) سورة هود آية ١٠٧

(٥) سورة هود آية ١٠٨

الوجه السادس : أن ما كان بالرحمة وللرحمة فهو مقصود لذاته قصد الغايات وما كان من موجب الغضب والسخط فهو مقصود لغيره قصد الوسائل فهو مسبوق مغلوب مراد لغيره وما كان للرحمة فغالب سابق مراد لنفسه .

الوجه السابع : وهو أنه سبحانه قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، وعذابه مفعول منفصل ، وهو ناشيء عن غضبه ، ورحمته ههنا هي الجنة وهي رحمة مخلوقه ناشئة عن الرحمة التي هي صفة الرحمن فههنا أربعة امور رحمة هي وصفة سبحانه ، وثواب منفصل هو ناشيء عن رحمته ، وغضب يقوم به سبحانه ، وعقاب منفصل ينشأ عنه فإذا غلبت صفة الرحمة صفة الغضب فلأن يغلب ما كان بالرحمة لما كان بالغضب أولى وأخرى ، فلا تقاوم النار التي نشأت عن الغضب الجنة التي نشأت عن الرحمة .

الوجه الثامن : أن النار خلقت تخويفا للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين والمجرمين، فهي طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في هذا العالم فإن تطهرت ههنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة لم يحتج إلى تطهير هناك وقيل لها مع جملة الطيبين سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وإن لم تتطهر في هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدونها ونجاستها وخبثها ادخلت النار طهرة لها ويكون مكثها في النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التي لا يغسلها الماء ، فإذا تطهرت الطهر التام أخرجت من النار والله سبحانه خلق عباده حنفاء وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فلو خلوا وفطرهم لما نشؤوا الا على التوحيد ولكن عرض لأكثر الفطر ما غيرها ، ولهذا كان نصيب النار أكثر من نصيب الجنة وكان هذا التغيير مراتب لا يحصيها إلا الله فأرسل الله رسوله ، وأنزل كتبه يذكر عباده بفطرته التي فطرهم عليها ، فعرف الموفقون الذين سبقت لهم من الله الحسنى صحة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب بالفطرة الأولى فتوافق عندهم شرع الله ودينه الذي أرسل به رسله وفطرته التي فطرهم عليها فمنعتهم الشرعة المنزلة والفطرة المكملة ، أن تكتسب نفوسهم خبثاً ونجاسة ودرناً يعلق بها ولا يفارقها ، بل كلما ألم بهم شيء من ذلك ومسهم طائف من الشيطان أغاروا

عليه بالشرعة والفطرة فأزالوا موجبه وأثره ، وكمل لهم الرب تعالى ذلك بأقضية يقضيها لهم مم يحبون أو يكرهون ، تمحص عنهم تلك الآثار التي شوشت الفطرة فجاء مقتضى الرحمة فصادف مكاناً قابلا مستعدا لها ليس فيه شيء يدافعه فقال هنا أمرت وليس لله سبحانه غرض . في تعذيب عباده بغير موجب كما قال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما) [1]واستمر الأشقياء مع تغيير الفطرة ونقلها مما خلقت عليه إلى ضده حتى استحكم الفساد وتم التغيير ، فاحتاجوا الى ازالة ذلك إلى تغيير آخر وتطهير ينقلهم إلى الصحة حيث لم تنقلهم آيات الله المتلوة والمخلوقة وأقداره المحبوبة والمكروهة في هذه الدار ، فأتاح لهم آيات أخر وأقضية ، وعقوبات فوق التي كانت في الدنيا تستخرج ذلك الخبث والنجاسة التي لا تزول بغير النار ، فإذا زال موجب العذاب وسببه زال العذاب وبقي مقتضى الرحمة لا معارض له ، فإن قيل هذا حق ولكن سبب التعذيب لا يزول الا اذا كان السبب عارضاً كمعاصي الموحدين ، أما إذا كان لازماً كالكفر والشرك فإن أثره لا يزول كما يزول السبب ، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في مواضع من كتابه منها : قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) فهذا إخبار بأن نفوسهم وطبائعهم لا تقتضي غير الكفر والشرك ، وأنها غير قابلة للايمان أصلا . ومنها قوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) [2] فأخبر سبحانه أن ضلالهم وعماهم عن الهدى دائم لا يزول حتى مع معاينة الحقائق التي أخبرت بها الرسل ، وإذا كان العمى والضلال لا يفارقهم فإن موجبه وأثره ومقتضاه لا يفارقهم . ومنها : قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون)[3] وهذا يدل على أنه ليس فيهم خير يقتضي الرحمة ولو كان فيهم خير ما ضيع عليهم أثره ، ويدل على أنهم لا خير فيهم هناك أيضاً قوله : «أخرجوا من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من خير» ولو كان عند هؤلاء أدنى أدنى مثقال ذرة من خير لخرجوا منها مع الخارجين .

---

(١) سورة النساء آية ١٤٧

(٢) سورة الإسراء آية ٧٢

(٣) سورة الأنفال آية ٢٣

قيل : لعمر الله ان هذا لمن أقوى ما يتمسك به من المسألة ، وان الامر لكما قلتم ، وإن العذاب يدوم بدوام موجبه وسببه ، ولا ريب أنهم في الآخرة في عمى وضلال كما كانوا في الدنيا بواطنهم خبيثة كما كانت في الدنيا ، والعذاب مستمر عليهم دائم ما داموا كذلك : ولكن هل هذا الكفر والتكذيب والخبث أمر ذاتي لهم زواله مستحيل أم هو أمر عارض طارىء على الفطرة قابل للزوال ؟ هذا حرف المسألة وليس بأيديكم ما يدل على استحالة زواله وأنه أمر ذاتي وقد أخبر سبحانه أنه فطر عباده على الحنيفية ، وأن الشياطين اجتالتهم عنها فلم يفطرهم سبحانه على الكفر والتكذيب ، كما فطر الحيوان البهيم على طبيعته وانما فطرهم على الإقرار بخالقهم ومحبته وتوحيده .

فاذا كان هذا الحق الذي قد فطروا عليه وخلقوا عليه قد أمكن زواله بالكفر والشرك الباطل فإمكان زوال الكفر والشرك والباطل بضده من الحق أولى وأحرى ، ولا ريب أنهم لو ردوا على تلك الحال التي هم عليها لعادوا لما نهوا عنه ولكن من أين لكم أن تلك الحال لا تزول ولا تتبدل بنشأة أخرى ينشئهم فيها تبارك وتعالى اذا أخذت النار مأخذها منهم ، وحصلت الحكمة المطلوبة من عذابهم ، فإن العذاب لم يكن سدى وانما كان لحكمة مطلوبة . فاذا حصلت تلك الحكمة لم يبق في التعذيب أمر يطلب ولا غرض يقصد والله سبحانه ليس يشتفى بعذاب عباده كما يشتفى المظلوم من ظالمه وهو لا يعذب عبده لهذا الغرض ، وانما يعذبه طهرة له ورحمه به فعذابه مصلحة له ، وان تألم به غاية الألم كما أن عذابه بالحدود في الدنيا مصلحة لأربابها .

وقد سمى الله سبحانه الحد عذاباً وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل لكل داء دواء يناسبه ، ودواء الداء العضال يكون من أشق الأدوية ، والطبيب الشفيق يكون المريض بالنار كياً بعد كي ليخرج منه المادة الرديئة الطارئة على الطبيعة المستقيمة وان رأى قطع العضو أصلح للعليل قطعه وأذاقه أشد الألم فهذا قضاء الرب وقدره في ازالة مادة غريبة طرأت على الطبيعة المستقيمة بغير اختيار العبد ، فكيف اذا طرأ على الفطرة السليمة مواد فاسدة باختيار العبد وإرادته ؟

وإذا تأمل اللبيب شرع الرب تعالى وقدره في الدنيا وثوابه وعقابه في

الآخرة وجد ذلك في غاية التناسب والتوافق وارتباط ذلك بعضه ببعض فإن مصدر الجميع عن علم تام وحكمة بالغة ورحمة وهو سبحانه الملك الحق المبين وملكه ملك رحمة وإحسان وعدل .

الوجه التاسع : أن عقوبته بعد ليست لحاجته الى عقوبته لا لمنفعة تعود اليه ولا لدفع مضرة وألم يزول عنه بالعقوبة . بل يتعالى عن ذلك ويتنزه كما يتعالى عن سائر العيوب والنقائص ، ولا هي عبث محض خال عن الحكمة والغاية الحميدة فإنه أيضاً يتنزه عن ذلك ويتعالى عنه ، فإما أن يكون من تمام أوليائه وأحبابه ، وإما أن يكون من مصلحة الأشقياء ومداواتهم ، أو لهذا ولهذا .

وعلى التقادير الثالث، فالتعذيب أمر مقصود لغيره قصد الوسائل لا قصد الغايات والمراد من الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها ، ونعيم أوليائه ، ليس متوقفاً في أصله ولا في كماله على استمرار عذاب أعدائه ، وهوامه ومصلحة الأشقياء ليست في الدوام والاستمرار ، وإن كان في أصل التعذيب مصلحة لهم .

الوجه العاشر : أن رضا الرب تبارك وتعالى ورحمته صفتان ذاتيتان له ، فلا منتهى لرضاه بل كما قال أعلم الخلق به : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته . فاذا كانت رحمته غلبت فإن رضا نفسه أعلى وأعظم ، فإن رضوانه أكثر من الجنات ونعيمها وكل ما فيها وقد أخبر أهل الجنه أنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأما غضبه تبارك وتعالى وسخطه فليس من صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها بحيث لم يزل ولا يزال غضبان والناس لهم في صفة الغضب قولان :

احدهما : أنه من صفاته الفعلية القائمة به كسائر أفعاله .

والثاني : أنه صفة فعل منفصل عنه غير قائم به . وعلى القولين فليس كالحياة والعلم والقدرة التي يستحيل مفارقتها له والعذاب انما ينشأ من صفة غضبه وما سعرت النار الا بغضبه ، وقد جاء في أثر مرفوع «ان الله خلق خلقاً من غضبه وأسكنهم بالمشرق وينتقم بهم ممن عصاه» فمخلوقاته سبحانه نوعان من نوع مخلوق من الرحمة وبالرحمة . ونوع مخلوق من الغضب وبالغضب .

فانه سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي يتنزه عن تقدير خلافه ومنه أنه يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل وينتقم ويعفو . بل هذا موجب ملكه الحق وهو حقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد . فإذا زال غضبه سبحانه وتبدل برضاه زالت عقوبته وتبدلت برحمته فانقلبت العقوبة رحمة بل لم تزل رحمة وإن تنوعت صفتها وصورتها كما كان عقوبة العصاة رحمة وإخراجهم من النار رحمة ، فتقلبوا في رحمته في الدنيا وتقلبوا فيها في الآخرة ، لكن تلك رحمة يحبونها وتوافق طبائعهم وهذه رحمة يكرهونها وتشق عليهم كرحمة الطبيب الذي يبضع لحم المريض ويلقى عليه المكاوى ليستخرج منه المواد الردية الفاسدة .

فإن قيل : هذا اعتبار غير صحيح فإن الطبيب يفعل ذلك بالعليل وهو يحبه وهو راض عنه ولم ينشأ فعله به عن غضبه عليه ولهذا لا يسمى عقوبة ، وأما عذاب هؤلاء فإنه إنما حصل بغضبه سبحانه عليهم وهو عقوبة محضة .

قيل : هذا حق ولكن لا ينافي كونه رحمة بهم ، وإن كان عقوبة لهم وهذا كاقامة الحدود عليهم في الدنيا فانه عقوبة ورحمة وتخفيف وطهرة، فالحدود طهرة لأهلها وعقوبة ، وهم لما أغضبوا الرب تعالى وقابلوه بما لا يطيق أن يقابل به وعاملوه أقبح المعاملة وكذبوه وكذبوا رسله وجعلوا أقل خلقه وأخبثم وأمقتهم له نداً له ، وآلهة معه وآثروا رضاهم على رضاه وطاعتهم على طاعته ، وهو ولي الإنعام عليهم وهو خالقهم ورازقهم ومولاهم ، الحق الذي اشتد مقته لهم وغضبه عليهم وذلك بوجب كماله اسمائه وصفاته التي يستحيل عليه تقدير خلافاتها ويستحيل عليه تخلف آثارها ومقتضاها عنها بل ذلك تعطل لأحكامها ، كما ان نفيها عنه تعطيل لحقائقها وكلا التعطيلين محال عليه سبحانه .

فالمعطلون نوعان أحدهما : عطل صفاته والثاني عطل أحكامها وموجباتها . وكان هذا العذاب عقوبة لهم من هذا الوجه ودواء لهم من جهة الرحمة السابقة للغضب فاجتمع فيه الأمران ، فإذا زال الغضب بزوال سببه وزالت المادة الفاسدة بتغير الطبيعة المقتضية لها في الجحيم بمرور الأحقاب عليها ، وحصلت الحكمة التي اوجبت العقوبة عملت الرحمة عملها وطلبت أثرها من غير معارض .

الوجه الحادي عشر : وهو أن العفو أحب اليه سبحانه من الانتقام ، والرحمة أحب اليه من العقوبة والرضا أحب اليه من الغضب . والفضل أحب إليه من العدل . ولهذا ظهرت آثار المحبة في شرعه وقدره ويظهر كل الظهور لعباده في ثوابه وعقابه ، واذا كان ذلك أحب الأمرين اليه وله خلق الخلق وانزل الكتب وشرع الشرائع وقدرته سبحانه صالحة لكل شيء لا قصور فيها بوجه ما ، وتلك المواد الرديئة الفاسدة مرض من الأمراض وبيده سبحانه الشفاء التام والأدوية الموافقة لكل داء ، وله القدرة التامة والرحمة البالغة والغنى المطلق ، وبالعبد أعظم حاجة الى من يداوي علته التي بلغت غاية الضرر والمشقة ، وقد عرف العبد أنه عليل وأن دواءه بيد الغني الحميد ، فتضرع اليه ودخل به عليه واستكان له وانكسر قلبه بين يديه وذل لعزته وعرف أن الحمد كله له ، وأن الخلق كله وأنه هو الظلوم الجهول وأن ربه تبارك وتعالى عامله بكل عدله لا يبغض عدله ، وأن له غاية الحمد فيما فعل به ، وأن حمده هو الذي أمامه ، في هذا المقام وأوصله إليه وأنه لا خير عنده من نفسه بوجه من الوجوه ، بل ذلك محض فضل الله وصدقه عليه وأنه لا نجاة له مما هو فيه بمجرد العفو والتجاوز عن حقه فنفسه أولى بكل ذم وعيب ونقص ، وربه تعالى أولى بكل حمد وكمال ومدح .

فلو أن أهل الجحيم شهدوا نعمته سبحانه ورحمته وكماله وحمده الذي أوجب لهم ذلك فطلبوا مرضاته ولو بدوامهم في تلك الحال . وقالوا ان كان ما نحن فيه رضاك فرضاك الذي نرى وما وما أوصلنا الى هذه الحال الا طلب ما لا يرضيك فأما اذا أرضاك ، هذا منا فرضاك غاية ما نقصده (وما لجرح اذا أرضاك من ألم) وأنت أرحم بنا من أنفسنا وأعلم بمصالحنا ولك الحمد كله ، عاقبت أو عفوت ، لانقلبت النار عليهم برداً وسلاماً .

وقد روى الامام أحمد في مسنده من حديث الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال : «يأتي اربعة يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الاصم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أسمع شيئاً . وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر . وأما الهرم فيقول : ربي لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي

مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك من رسول ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار ، قال فو الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » .

وفي المسند أيضاً : من حديث قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله وقال : «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب اليها» فهؤلاء لما رضوا بتعذيبهم وبادروا اليه لما علموا أن فيه رضى ربهم وموافقة أمره ومحبته انقلب في حقهم نعيماً .

ومثل هذا ، وما رواه عبد الله بن المبارك حدثني رشدين قال حدثني ابن أنعم عن أبي عثمان أنه حدثه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ان رجلين ممن دخلا النار يشتد صياحهما . فقال الرب جلا جلاله : أخرجوهما فإذا أخرجا فقال لهما : لأي شيء اشتد صياحكما ؟ قالا : فعلنا ذلك لترحمنا ، قال : رحمتي لكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار . قال فينطلقان فيلقى أحدهما نفسه فيجعلها الله سبحانه عليه برداً وسلاماً ، ويقوم الآخر فلا يلقى فيقول له الرب : ما منعك أن تلقى نفسك كما ألقى صاحبك ؟ فيقول : رب إني أرجوك أن لا تعيدني فيها بعد ما أخرجتني منها ، فيقول الرب تعالى لك رجاؤك ، فيدخلان الجنة جميعاً برحمة الله » .

وذكر الأوزاعي عن بلاد بن سعد قال : « يؤمر باخراج رجلين من النار فإذا أخرجا ووقفا قال الله لهما كيف وجدتما مقيلكما وسوء مصيركما؟ فيقولان : شر مقيل ، وأسوأ مصير ، ثار اليه العباد ، فيقول لهما : بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، قال : فيؤمر بصرفهما الى النار فأما أحدهما فيغدو في أغلاله وسلاسله حتى يقتحمها : وأما الآخر فيتلكأ فيؤمر بردهما فيقول للذي غدا في أغلاله وسلاسله حتى اقتحمها : ما حملك على ما صنعت وقد خرجت منها ؟ فيقول اني خبرت من وبال معصيتك ما لم أكن أتعرض لسخطك ثانياً . ويقول الذي تلكأ : ما حملك على ما صنعت ؟؟ فيقول : حسن ظني بك حين اخرجتني منها أن لا تردني إليها فيرحمهما جميعاً ويأمر بهما إلى الجنة» .

الوجه الثاني عشر : أن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه . وأما العذاب والعقوبة فانما هو من

مخلوقاته ، لذلك لا يسمى بالمعاقب والمعذب بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى : (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) [1] وقال تعالى : (أعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم) [2] وقال تعالى : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) [3] ومثلها في آخر الأنعام ، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها ولا سيما اذا كان محبوباً له وهو غاية مطلوبة في نفسها وأما الشر الذي هو العذاب في أسمائه وصفاته ، وإن دخل في مفعولاته لحكمه اذا حصلت زال وفنى بخلاف الخير ، فانه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبداً وهو قديم الإحسان أبدي الاحسان ، فلم يزل ولا يزال محسناً على الدوام . وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال معاقباً على الدوام غضبان على الدوام منتقماً على الدوام ، فتأمل هذا الوجه تأمل فقيه في باب أسماء الله وصفاته ، يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته :

الوجه الثالث عشر : وهو قول أعلم خلقه به ، وأعرفهم بأسمائه وصفاته «والشر ليس اليك » ولم يقف على المعنى المقصود من قال الشر لا يتقرب به اليك ، بل الشر لا يضاف اليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا أسمائه ، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وصفاته كلها صفات كال يحمد عليها ويثنى عليه بها ، وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل ، وحكمة لا شر فيها بوجه ما، وأسماؤه كلها حسنى ، فكيف يضاف الشر إليه بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته وهو منفصل عنه ، اذ فعله غير مفعوله ففعله خير كله ، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر .

وإذا كان الشر مخلوقاً منفصلاً غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف اليه وهو ﷺ لم يقل : أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله ، وانما نفي إضافته اليه وصفة وفعلا وأسماء ، واذا عرف هذا فالشر ليس الا الذنوب وموجباتها .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٤٩ و٥٠ .

(٢) سورة المائدة آية ٩٨ .

(٣) سورة الأعراف آية ٦٧ .

وأما الخير فهو الإيمان الطاعات وموجباتها ، والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه ، ولأجلها خلق خلقه وأرسل رسله وأنزل كتبه ، وهي ثناء على الرب وإجلاله وتعظيمه وعبوديته ، وهذه لها اثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها .

وأما الشرور فليست مقصودة لذاتها . ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق فهي مفعولات قدرت لأمر محبوب وجعلت وسيلة إليه فإذا حصل ما قدرت له اضمحلت وتلاشت وعاد الأمر الى الخير المحض .

الوجه الرابع عشر : أنه سبحانه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء . فليس شيء من الأشياء الا وفيه رحمته ولا ينافى هذا أن يرحم العبد بما يشق عليه ويؤلمه وتشتد كراهته له فإن ذلك من رحمته أيضاً كما تقدم .

وقد ذكرنا حديث أبي هريرة آنفا وقوله تعالى لذينك الرجلين : رحمتى لكما ان تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار . وقد جاء في بعض الآثار أن العبد اذا دعا لمبتلى قد اشتد بلاؤه وقال : اللهم ارحمه : يقول الرب تبارك وتعالى : كيف أرحمه من شيء به أرحمه . فالابتلاء رحمه منه لعباده «وفي أثر إلهي » يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستي . وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل شكري أهل زيادتى ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ان تابوا فأنا حبيبهم وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصايب لأطهرهم من المعايب » : فالبلاء والعقوبة أدوية قدرت لإزالة أدواء لا تزول إلا بها والنار هي الدواء الأكبر فمن تداوى في الدنيا أغناه ذلك عن الدواء في الآخرة ، والا فلا بد له من الدواء بحسب دائه ومن عرف الرب تبارك وتعالى بصفات جلاله ونعوت كماله من حكمته ورحمته وبره واحسانه وغناه وجوده وتحببه الى عباده وارادة الانعام عليهم وسبق رحمته لهم لم يبادر الى انكار ذلك ان لم يبادر الى قبوله .

الوجه الخامس عشر : أن افعاله سبحانه لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل ، فلا يفعل عبثاً ولا جوراً ولا باطلا بل هو المنزه عن ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص . واذا ثبت ذلك فتعذيبهم ان كان رحمة بهم حتى يزول ذلك الخبث وتكمل الطهارة فظاهر ، وان كان لحكمة فاذا

حصلت تلك الحكمة المطلوبة زال العذاب وليس في الحكمة دوام العذاب ابد الآباد بحيث يكون دائماً بدوام الرب تبارك وتعالى وان كان لمصلحة فان كان يرجع اليهم ، فليست مصلحتهم في بقائهم في العذاب كذلك ، وان كانت المصلحة تعود الى أوليائه فان ذلك اكمل في نعيمهم فهذا لا يقتضي تأبيد العذاب وليس نعيم أوليائه وكماله موقوفاً ، على بقاء آبائهم وأبنائهم وأزواجهم في العذاب السرمد .

فان قلتم : ان ذلك هو موجب الرحمة والحكمة والمصلحة قلتم ما لا يعقل ، وان قلتم ان ذلك عائد الى محض المشيئة ولا تطلب له حكمة ولا غاية فجوابه من وجهين .

أحدهما : ان ذلك محال على أحكم الحاكمين وأعلم العالمين أن تكون أفعاله معطلة عن الحكم والمصالح والغايات المحمودة والقرآن والسنة وأدلة العقول والفطر والآيات المشهودة شاهدة ببطلان ذلك .

والثاني : أنه لو كان الامر كذلك لكان ابقاؤهم في العذاب وانقطاعه عنهم بالنسبة الى مشيئته سواء ولم يكن في انقضائه ما ينافي كماله وهو سبحانه لم يخبر بأبدية العذاب وأنه لا نهاية له .

وغاية الامر على هذا التقدير : أن يكون من الجائزات الممكنات الموقوف حكمها على خبر الصادق .

فإن سلكت طريق التعليل بالحكمة والرحمة والمصلحة لم يقتض الدوام ، وان سلكت طريق المشيئة المحضة التي لا تعلل لم تقتضه أيضاً .

وان وقف الأمر على مجرد السمع فليس فيه ما يقتضيه .

السادس عشر : أن رحمته سبحانه سبقت غضبه في المعذبين فانه انشأهم في رحمته ، ورباهم برحمته ورزقهم وعافاهم برحمته وأرسل اليهم الرسل برحمته وأسباب النقمة والعذاب متأخرة عن أسباب الرحمة طارئة عليهم فرحمته سبقت غضبه فيها وخلقهم على خلقه ، تكون رحمته اليهم أقرب من غضبه وعقوبته .

ولهذا ترى أطفال الكفار قد القى عليهم رحمته فمن رآهم رحمهم ، ولهذا نهى عن قتلهم فرحمته سبقت غضبه فيهم ، فكانت هي السابقة اليهم ففي كل حال هم في رحمته في حال معافاتهم وابتلائهم .

وإذا كانت الرحمة هي السابقة فيهم لم يبطل أثرها بالكلية وان عارضها أثر الغضب والسخط فذلك لسبب منهم ، وما أثر الرحمة فسببه منه سبحانه فما منه يقتضي رحمتهم . وما منهم يقتضي عقوبتهم والذي منه سابق غالب ، واذا كانت رحمته تغلب غضبه فلان يغلب أثر الرحمة أثر الغضب أولى وأحرى .

الوجه السابع عشر : أنه سبحانه يخبر عن العذاب أنه عذاب يوم عقيم وعذاب يوم عظيم ، وعذاب يوم أليم ، ولا يخبر عن النعيم أنه نعيم يوم ولا في موضع واحد .

وقد ثبت في الصحيح : تقدير يوم القيامة بخمسين الف سنة والمعذبون متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم ، والله سبحانه جعل العذاب على ما كان من الدنيا وأسبابها ، وما أريد به الدنيا ولم يرد به وجه الله فالعذاب على ذلك .

وأما ما كان للآخرة وأريد به وجه الله فلا عذاب عليه ، والدنيا قد جعل لها اجل تنتهي اليه فما انتقل منها الى تلك الدار مما ليس لله فهو المعذب به .

وأما ما أريد به وجه الله والدار الآخرة فقد أريد به ما لا يفني ولا يزول ، فيدوم بدوام المراد به ، فان الغاية المطلوبة اذا كانت دائمة لا تزول لم يزل ما تعلق بها بخلاف الغاية المضمحلة الفانية ، فما أريد به غير الله يضمحل ويزول بزوال مراده ومطلوبه وما اريد به وجه الله يبقى ببقاء المطلوب المراد فاذا اضحلت الدنيا وانقطعت أسبابها وانتقل ما كان فيها لغير الله من الأعمال والذوات وانقلب عذاباً وآلاماً لم يكن له متعلق يدوم بدوامه بخلاف النعيم .

الوجه الثامن عشر : أنه ليس في حكمة أحكم الحاكمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له ولا انقطاع أبداً ، وقد دلت الأدلة السمعية والعقلية والفطرية على أنه سبحانه حكيم ، وأنه أحكم الحاكمين فاذا عذب خلقه عذبهم بحكمه كما يوجب التعذيب والعقوبة في الدنيا في شرعه وقدره ، فان فيه من الحكم والمصالح وتطهير العبد ومداواته واخراج المواد الردية عنه بتلك الآلام ما تشهده العقول الصحيحة ، وفي ذلك من تزكية النفوس وصلاحها وزجرها وردع نظائرها وتوقيفها على فقرها وضرورتها الى ربها وغير ذلك من الحكم والغايات الحميدة ما لا يعلمه الا الله .

ولا ريب أن الجنة طيبة لا يدخلها الا طيب ولهذا يحاسبون اذا قطعوا الصراط على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .

ومعلوم أن النفوس الشريرة الخبيثة المظلمة التي لو ردت الى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه ، لا يصلح أن تسكن دار السلام في جوار رب العالمين ، فاذا عذبوا بالنار عذاباً تخلص نفوسفهم من ذلك الخبث والوسخ والدرن ، كان ذلك من حكمة أحكم الحاكمين ورحمته ولا ينافي الحكمة خلق نفوس فيها شر يزول بالبلاء الطويل والنار ، كما يزول بها خبث الذهب والفضة والحديد فهذا معقول في الحكمة وهو من لوازم العالم المخلوق على هذه الصفة .

أما خلق نفوس لا يزول شرها أبداً وعذابها لا انتهاء له ، فلا يظهر في الحكمة والرحمة ، وفي وجود مثل هذا النوع نزاع بين العقلاء أعني ذواتاً ، هي شر من كل وجه ليس فيها شيء من حير أصلا .

وعلى تقدير دخوله في الوجود ، فالرب تبارك وتعالى قادر على قلب الأعيان وإحالتها واحالة صفاتها .

فاذا وجدت الحكمة المطلوبة من خلق هذه النفوس والحكمة المطلوبة من تعذيبها ، فالله سبحانه قادر أن ينشئها نشأة أخرى غير تلك النشأة ، ويرحمها في النشأة الثانية نوعاً آخر من الرحمة .

الوجه التاسع عشر : وهو أنه قد ثبت أن الله سبحانه ينشيء للجنة خلقاً آخر ، يسكنهم اياها ، ولم يعملوا خيراً تكون الجنة جزاء لهم عليه ، فاذا اخذ العذاب من هذه النفوس مأخذه وبلغت العقوبة مبلغها فانكسرت تلك النفوس وخضعت وذلت واعترفت لربها وفاطرها بالحمد ، وأنه عدل فيها كل العدل ، وأنها في هذه الحال كانت في تخفيف منه ولو شاء أن يكون عذابهم أشد من ذلك لفعل .

وشاء كتب العقوبة طلباً لموافقة رضاه ومحبته وعلم أن العذاب أولى بها وأنه لا يليق بها سواه ولا تصلح الا له فذابت منها تلك الخبائث كلها وتلاشت ، وتبدلت بذل وانكسار وحمد وثناء على الرب تبارك وتعالى ، ولم يكن في

حكمته أن يستمر بها في العذاب بعد ذلك ، اذ قد تبدل شرها بخيرها ، وشركها بتوحيدها وكبرها بخضوعها وذلها .

ولا ينتقض هذا بقوله عز وجل (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) فان هذا قبل مباشرة العذاب الذي يزيل تلك الخبائث ، وانما هو عند المعاينة قبل الدخول فإنه سبحانه قال (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون)[1] .

فهذا انما قالوه قبل أن يستخرج العذاب منهم تلك الخبائث ، فأما اذا لبثوا في العذاب أحقاباً ، والحقب كما رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «الحقب خمسون الف سنة» فانه من الممتنع أن يبقى ذلك الكبر والشرك والخبث بعد هذه المدد المتطاولة في العذاب .

الوجه العشرون : أنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري في حديث الشفاعة «فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة ، يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل .

فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » .

فهؤلاء أحرقتهم النار جميعهم فلم يبق في بدن أحدهم موضع لم تمسه النار ، بحيث صاروا حما ، وهو الفحم المحترق بالنار . وظاهر السياق أنه لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً ، فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا أرحم الراحمين فيقبض الله قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» .

فهذا السياق يدل على أن هؤلاء لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير ،

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

ومع هذا أخرجتهم الرحمة ومن هذا رحمته سبحانه سبحانه للذي أوصى أهله أن يحرقوه بالنار ويذروه في البر والبحر زعماً منه بأنه يفوت الله سبحانه ، فهذا قد شك في المعاد القدرة ولم يعمل خيراً قط .

ومع هذا فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك وأنت أعلم ، فما تلافاه أن رحمه الله فلله سبحانه في خلقه حكم لا تبلغه عقول البشر .

وقد ثبت في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام» قالوا : ومن ذا الذي في مدة عمره كلها من أولها الى آخرها لم يذكر ربه يوماً واحداً ولا خافه ساعة واحدة ، ولا ريب أن رحمته سبحانه اذا أخرجت من النار من ذكره وقتاً او خافه في مقام ما ، فغير بدع أن تفنى النار ولكن هؤلاء خرجوا منها وهي نار .

الوجه الحادي والعشرون : ان اعتراف العبد بذنبه حقيقة الاعتراف المتضمن لنسبة السوء والظلم واللوم إليه من كل وجه ونسبة العدل والحمد والرحمة والكمال المطلق إلى ربه من كل وجه ، ويستعطف ربه تبارك وتعالى عليه ، ويستدعي رحمته له .

واذا اراد أن يرحم عبده القى ذلك في قلبه والرحمة معه ، ولا سيا اذا اقترن بذلك جزم العبد على ترك المعاودة لما يسخط ربه عليه ، وعلم الله أن ذلك داخل قلبه وسويدائه ، فانه لا تتخلف عنه الرحمة مع ذلك .

وفي معجم الطبراني من حديث يزيد بن سنان الرهاوي عن سليمان بن عامر عن أبي امامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ان آخر رجل يدخل الجنة رجل يتقلب على الصراط ظهراً لبطن ، كالغلام يضربه أبوه وهو يفر منه ، يعجز عنه عمله أن يسعى فيقول : يا رب بلغ بي الجنة ونجني من النار ، فيوحى الله تبارك وتعالى اليه : عبدي ان أنا نجيتك من النار وأدخلتك الجنة أتعترف لي بذنوبك وخطاياك ؟ فيقول العبد : نعم يارب ، وعزتك وجلالك ان نجيتني من النار لاعترفن لك بذنوبي وخطاياي فيجوز الجسر ، ويقول العبد فيما بينه وبين نفسه : لئن اعترفت له بذنوبي وخطاياي ليردني الى النار ، فيوحى الله اليه : عبدي اعترف لي بذنوبك وخطاياك

أغفرها لك وأدخلك الجنة فيقول العبد : لا وعزتك وجلالك ، ما أذنبت ذنباً قط ولا أخطأت خطيئة قط فيوحى الله اليه : عبدي إن لي عليك بينة ، فيلتفت العبد يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً ، فيقول : يا رب أرني بينتك فيستنطق الله تعالى جلده بالمحقرات ، فإذا رأى ذلك العبد فيقول : يا رب عندي وعزتك العظائم فيوحي الله اليه عبدي أنا اعرف بها منك اعترف لي بها أغفرها لك وأدخلك الجنة فيعترف العبد بذنوبه فيدخل الجنة ، ثم ضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه يقول : هذا ادنى أهل الجنة منزلة فكيف بالذي فوقه ؟» .

فالرب تعالى يريد من عبده الاعتراف والانكسار بين يديه والخضوع والذلة له والعزم على مرضاته ، فما دام أهل النار فاقدين لهذا الروح فهم فاقدون لروح الرحمة فاذا اراد عز وجل أن يرحمهم أو من يشاء منهم جعل في قلبه ذلك فتدركه الرحمة ، وقدرة الرب تبارك وتعالى غير قاصرة على ذلك ، وليس فيه ما يناقض موجب أسمائه وصفاته ، وقد أخبر أنه فعال لما يريد .

الوجه الثاني والعشرون : أنه سبحانه قد أوجب الخلود على معاصي من الكبائر وقيده بالتأبيد ولم يناف ذلك انقطاعه وانتهاءه : فمنها : قوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) [1].

ومنها : قول النبي ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » وهو حديث صحيح .

وكذلك قوله في الحديث الآخر في قاتل نفسه « فيقول الله تبارك وتعالى بادرني عبدي بنفسي حرمت عليه الجنة» وأبلغ من هذا قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) [2] فهذا وعيد مقيد بالخلود والتأبيد ، مع انقطاعه قطعاً بسبب من العبد وهو التوحيد ، فكذلك الوعيد العام لأهل النار لا يمتنع انقطاعه ، بسبب ممن كتب على نفسه الرحمة وغلبت

---

(١) سورة النساء آية ٩٣ .

(٢) سورة الجن آية ٢٣ .

رحمته غضبه ، فلو يعلم الكافر بكل ما عنده من الرحمة لما يئس من رحمته كما في صحيح البخاري عنه ﷺ : « خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، وقال في آخره فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار » .

الوجه الثالث والعشرون : أنه لو جاء الخبر منه سبحانه صريحاً بأن عذاب النار لا انتهاء له ، وأنه أبدي لا انقطاع له ، لكان ذلك وعيداً منه سبحانه والله تعالى لا يخلف وعده ، وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم أن أخلاقه كرم وعفو وتجاوز يمدح الرب تبارك وتعالى به ويثني عليه به فإنه حق له ان شاء تركه ، وان شاء استوفاه ، والكريم لا يستوفي حقه فكيف بأكرم الأكرمين ؟!

وقد صرح سبحانه في كتابه في غير موضع بأنه لا يخلف وعده ، ولم يقل في موضع واحد لا يخلف وعيده .

وقد روى أبو يعلى الموصلي ثنا هديه بن خالد ثنا سهيل بن أبي حزم ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه ، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار» .

وقال أبو الشيخ الأصبهاني حدثنا محمد بن حمزة حدثنا أحمد بن الخليل حدثنا الأصمعي قال : « جاء عمرو بن عبيد الى أبي عمرو بن العلاء فقال : يا أبا عمرو ، يخلف الله ما وعده ؟ قال : لا ، قا أفرأيت من أوعده الله على عمله عقاباً ايخلف الله وعده عليه ؟ فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة أتيت يا أبا عثمان ان الوعد غير الوعيد ان العرب لا تعد عاراً ولا خلقا أن تعد شراً ، ثم لا تفعله ترى ذلك كرما وفضلا ، وانما الخلف ان تعد خيراً ثم لا تفعله ، قال : فأوجدني هذا في كلام العرب ، قال : نعم ، أما سمعت الى قول الأول :.

ولا يرهب ابن العم ما عشت سطوتي ولا أختشي من صولة المتهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

قال أبو الشيخ وقال يحي بن معاذ : الوعد والوعيد حق ، فالوعد حق العباد على الله ضمن لهم إذا فعلوه كذا أن يعطيهم وكذا ، ومن أولى بالوفاء من الله ، والوعيد حقه على العباد قال : لا تفعلوا كذا فأعذبكم ، ففعلوا فإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ لأنه حقه وأولاهما بربنا تبارك وتعالى ، العفو والكرم أنه غفور رحيم ، ومما يدل على ذلك ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله ﷺ فقال :

نبئت أن رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فاذا كان هذا في وعيد مطلق ، فكيف بوعيد مقرون ، باستثناء معقب بقوله (ان ربك فعال لما يريد) وهذا اخبار منه أن يفعل ما يريد عقيب قوله الا ما شاء ربك فهو عائد اليه ولا بد ، ولا يجوز أن يرجع الى المستثنى منه وحده ، بل اما ان يختص بالمستثنى أو يعود اليهما وغير خاف أن تعلقه بقوله (إلا ما شاء ربك) أولى من تعلقه بقوله (خالدين فيها) وذلك ظاهر للمتأمل وهو الذي فهمه الصحابة ، فقالوا : أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن ، ولم يريدوا بذلك الاستثناء وحده ، فإن الاستثناء مذكور في الأنعام أيضاً ، وانما ارادوا عقب الاستثناء بقوله (ان ربك فعال لما يريد) وهذا التعقيب نظير قوله في الأنعام (خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) [1] فأخبر أن عذابهم في جميع الأوقات ورفعه عنهم في وقت يشاؤه صادر عن كمال علمه وحكمته لا عن مشيئة مجردة عن الحكمة والمصلحة والرحمة والعدل ، وإذ يستحيل تجرد مشيئته عن ذلك .

الوجه الرابع والعشرون : أن جانب الرحمة أغلب في هذه الدار الباطلة الفانية الزائلة عن قرب من جانب العقوبة والغضب ولولا ذلك لما عمرت ولا قام لها وجود ، كما قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليهم من دابة) [2] وقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٨

(٢) سورة النحل آية ٦١

[1] فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم ، ومع هذا فالذي أظهره من الرحمة في هذه الدار ، وأنزله بين الخلائق جزء من مائة جزء من الرحمة ، فاذا كان جانب الرحمة قد غلب في هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر ، مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له وتمكنه من اغضاب ربه والسعي في مساخطته ، فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة ، على ما في هذه الدار تسعاً وتسعين ضعفاً ، وقد أخذا العذاب من الكفار مأخذه ، وانكسرت تلك النفوس وأنهكها العذاب ، واذاب منها خبثاً وشراً لم يكن يحول بينها وبين رحمته لها في الدنيا ، بل كان يرحمها مع قيام مقتضى العقوبة والغضب بها فيكيف اذا زال مقتضى الغضب والعقوبة ، وقوى جانب الرحمة أضعاف أضعاف الرحمة في هذه الدار واضمحل الشر والخبث الذي فيها فأذابته النار وأكلته .

وسر الأمر أن أسماء الرحمة والإحسان أغلب وأظهر ، وأكثر من أسماء الانتقام ، وفعل الرحمة أكثر من فعل الانتقام وظهور آثار الرحمة أعظم من ظهور آثار الانتقام ، والرحمة أحب اليه من الانتقام ، وبالرحمة خلق خلقه ولها خلقهم، وهي التي سبقت غضبه وغلبته وكتبها على نفسه ، ووسعت كل شيء ، وما خلق بها فمطلوب لذاته ، وما خلق بالغضب فمراد لغيره ، كما تقدم تقرير ذلك والعقوبة تأديب وتطهير . والرحمة إحسان وكرم وجود والعقوبة مداواة ، والرحمة عطاء وبذل .

الوجه الخامس والعشرون : أنه سبحانه لا بد أن يظهر لخلقه جميعهم يوم القيامة صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين المفترين ، ويظهر لهم حكمه الذي هو أعدل حكم في أعدائه وأنه حكم فيها حكما يحمدونه هم عليه فضلا عن أوليائه وملائكته ورسله بحث ينطق الكون كله بالحمد لله رب العالمين ولذلك قال تعالى : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) [2] فحذف فاعل القول لإرادة الإطلاق وأن ذلك جار على لسان كل ناطق وقلبه . قال الحسن لقد دخلوا النار ، وأن قلوبهم لممتلئة من حمده ما

(١) سورة فاطر آية ٤٥

(٢) سورة الزمر آية ٧٥

وجدوا عليه سبيلا . وهذا هو الذي حسن حذف الفاعل من قوله (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها)[1] حتى كان الكون جميعه قائل ذلك لهم إذ هو حكمه العدل فيهم ومقتضى حكمته وحمده .

وأما أهل الجنة فقال تعالى (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)[2] فهم لم يستحقوها بأعمالهم وانما استحقوها بعفوه ورحمته وفضله ، فاذا أشهد سبحانه ملائكته وخلقه كلهم حكمه العدل وحكمته الباهرة .

ووضعه العقوبة حيث تشهد العقول والفطر والخليقة أنه أولى المواضع وأحقها بها ، وأن ذلك من كمال حمده الذي هو مقتضى أسمائه وصفاته وأن هذه النفوس الخبيثة الظالمة الفاجرة ، لا يليق بها غير ذلك ولا يحسن بها سواه بحيث تعترف هي من ذواتها بأنها أهل ذلك وأنها أولى به حصلت الحكمة التي لأجلها ، وجد الشر وموجباته في هذه الدار وتلك الدار .

وليس في الحكمة الإلهية أن الشرور تبقى دائما لا نهاية لها ولا انقطاع أبداً ، فتكون هي والخيرات في ذلك على حد سواء ، فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة ، ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب .

فإن قيل : فالى أين أنتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن ، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة ؟

قيل : الى قوله تبارك وتعالى : (إن ربك فعال لما يريد)[3] إلى هذا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وقال . ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

بل والى ههنا انتهت أقدام الخلائق وما ذكرنا في هذه المسأله بل في الكتاب كله من صواب فمن الله سبحانه ، وهو المعان به وما كان من خطأ فمني ، ومن الشيطان والله ورسوله برىء منه ، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده والله اعلم .

---

(١) سورة الزمر آية ٧٢

(٢) سورة الزمر آية ٧٣

(٣) سورة هود آية ١٠٧

خاتمـــة

هذا ما استطعت جمعه من فضائل شيخنا وامامنا وقدوتنـا شيخ الاسلام ، احمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله ـ جمعناهـا رداً على الـذي زعم بجهلـه او بحقـده ـ ان هـذا الامـام قـد كفره العلمـاء قبـل موتـه ، بل تطـاول وقـال وانـه لو قـدر لـه أن يقوم من قبره لنفـذ فيـه حكم الردة ليعلم كل من تعصب لهـذا الرجل ونصره رغم بـاطلـه انه قد عمل في هدم الدين ، واساء أعظم اساءة الى امام عظيم من أئمة المسلمين لا زال فضلــه بعــد الله على أهـل الاسـلام منــذ عصره والى يومنا هذا ، ولا زال علمـه وكتبـه مرجع الباحثين ، وقبلـه طلاب العلم الشرعي الحقيقي أجمعين .

ولا شك ان كثرة التعرض لعرض شيخ الاسلام ابن تيميـة انمـا هو دليل فضله كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عنـدمـا سمعت ان اناسا يسبون أبا بكر ويتهمونـه قـالت : أبى الله أن ينقطع عملـه .. فمن سب مؤمنا كان له بهذا الأجر عند الله ، وامـا الظـالم الشـاتم فلـه الخزي والعار في الدنيا والآخرة «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنـات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبيناً» (الاحزاب ٥٨) والحمد لله رب العـالمين ، وصلى الله وسلم على رسـولـه محمــد وآلــه وصحبــه أجمعين .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا اغفر لنا ذنوبنـا واسرافنا في امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنـا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمـان ولا تجعل في قلوبنـا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة .
٢ ـ الأصول العلمية للدعوة السلفية .
٣ ـ الحد الفاصل بين الايمان والكفر .
٤ ـ الولاء والبراء .
٥ ـ السلفيون والأئمة الأربعة .
٦ ـ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة .
٧ ـ خطوط رئيسية لبعث الأمة الاسلامية .
٨ ـ الشورى في ظل نظام الحكم الاسلامي .
٩ ـ الطريق إلى حج مبرور .
١٠ ـ مشكلاتنا التربوية في ضوء الاسلام .
١١ ـ أضواء على مشكلاتنا السياسية .
١٢ ـ الزواج في ظل الاسلام .
١٣ ـ الرد على من أنكر توحيد الأسماء والصفات .
١٤ ـ منهج جديد لدراسة التوحيد .
١٥ ـ فصول من السياسة الشرعية في الدعوة الى الله .
١٦ ـ لمحات من حياة شيخ الاسلام ابن تيمية .

